

الفصل التاسع

اليقظة العربية الحديثة

محمّد

أنهيت في مختتم الفصل الثامن بحث الصراع بين الموالى والعرب ،
وكنيت أود الاكتفاء بذلك لولا أننى وجدت أن من اللازم أن أضيف
ملحقاً أذكر فيه شيئاً من مظاهر اليقظة العربية الحديثة إلى مواد البحث
ليكون من ذلك كله سلسلة مكتلة الخدمات .

لقد وصل إلى البحث فى رد الفعل على آثار الموالى إلى مفتتح القرن
التاسع عشر ووجدت ذلك ممثلاً بالأصول المنحدرة من تعاليم ابن تيمية
التي تبناها ابن عبد الوهاب ثم جمال الدين ومحمد عبده والكواكبي .

وكانت آراء هؤلاء الأماثل تكاد تنحصر فى مجملها فى العودة إلى
العقيدة الصحيحة التي جاء بها السلف الصالح من آباؤنا الأولين فى صدر
الإسلام والرجوع إلى هذه الروحانية السامية السكينة فى أسرار القرآن
والمأثور عن النبي (ص) وصحبه الكرام وأجداده الأجداد .

أجل ! لقد كان ما قام به هؤلاء الأماثل رد فعل لأعمال الباطنية
والسبائية التي هاجمت العقيدة بعقائد أخرى وعارضت تعاليم الإسلام
بتعاليم أخرى لتأتى على أصول هذه العقيدة وتضع مكانها بناءً مهلهلاً
فسكان من جراء ذلك هذا الأثر العنيف الذي ترك الأمة مشخنة بالجراح
تنوء بالأعباء وتئن من الآلام على أننى لن أقول إن هؤلاء الأماثل
ماساهموا فى إيقاف الرقود فى النهضة الحديثة فإن أصواتهم وإن كانت

رد فعل لتناجح الباطنية واليهودية السبائية فإنهم بعثوا في النفوس آمالا في توجيهها وإرشادها ولقد جاوز جمال الدين الأفغانى ذلك ونادى بطلب استعرا ب الأتراك بدل استتراك العرب ورجا أن يتحقق ذلك لتسكون الدولة العثمانية في مركز يجعلها تحكم هذه الأمة وتسير على أساس ما سار عليه الرشيد والمأمون في ازدهار حضارة جديدة أما السكواكي فقد كان يرى أن الأمة العربية أولى بالخلافة وأولى بالحكم . وكاد ابن عبد الوهاب يؤسس إمبراطورية عربية لولا تدخل الأجانب في الأمر ولولا طموح محمد علي خديوى مصر في أن تكون له هذه المسكانة .

كان من جراء ما فعلته مكائد اليهودية السبائية والباطنية أن انهارت تلك الامبراطورية المترامية الأطراف وتجاوزت عليها قوى الشرق في غزوات التاتار وقوى الغرب في الحروب الصليبية وظلت الأمة تتأرجح بين القوة والضعف وتمزقت أوصالها إلى دويلات وتعدد الحكم فيها وصارت تلك الرقعة الواسعة تحكم بعدة عناصر من مغول وترك وشراكسة وعرب وظلت على ذلك ردحا من الزمن حتى نشأت الدولة العثمانية في آسيا الصغرى وقويت شوكتها ففتحت القسطنطينية عام ١٤٥٣ ومشت جيوشها غازية موفقة حتى وقفت على أبواب فينا .

ولقد رأى المسلمون في هذه الدولة الفتية قوة لحماية العقيدة وأخذوا ينظرون إليها نظر المنقذ لذلك لم يكن بدعا أن يسكت العرب على كل ما كانت تقوم به في بادى أمرها .

العرب والترک

اندفع العرب من قلب الجزيرة فاتحين ومبشرين ، فاجتمعوا بإخوانهم في الشام والعراق ، ثم انتشروا في البلاد ، فوصلوا إلى إفريقية وعبروا البحر إلى الأندلس وركزوا أعلامهم على جبال البرنات ، وساروا شرقا

حتى وصلوا إلى كاشغر ، ولقد انتشرت اللغة العربية وأصبحت لغة الدين لجميع المسلمين ، يذكرون الله بها ويقرؤون القرآن وصارت لغة الكلام والآداب والعلم للأمة التي تنطق المنطقة التي تبدأ بسواحل الأطلنطي في الغرب مارة بالشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط وتنتهي شرقاً بمحدود بلاد إيران .

ولقد انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة بعد ما دمر هولاكو بغداد غير أن القاهرة لم تحتفظ بكيانها ، فاضطربت فيها الأحوال . وكانت الدولة العثمانية تزداد قوة في كل يوم وكان فناء السن وحرارة الشباب يساعدها على النمو في ذلك الزمان ، فافترس السلطان سليم العثماني الفرصة وخلص العراق من حكم الفرس عام ١٥١٥ وفتح مصر عام ١٥١٧ واضطرت الحالة في تلك الأيام الخليفة العباسي أن ينزل له عن سلطانه الروحاني وزعم بعض المؤرخين أن رسلاً من سدة الكعبة جاءوا إلى مصر يحملون مفاتيحها وبذلك صارت بغداد ودمشق ومكة وبيت المقدس والقاهرة في حوزة آل عثمان واستطاعت هذه الدولة أن تستولي على تونس وطرابلس الغرب وبرقة دون عناء يذكر كما انضمت إليها الجزائر طوعاً . وبقيت مراكش مستقلة وبلغت سلطة الدولة العثمانية ذروتها أيام سليمان القانوني وموجز القول أن قلب الجزيرة واليمن وعدن صارت في منطقة نفوذها أيضاً . وبذلك اجتمع الشعبان العربي والتركي تحت لواء الخلافة العثمانية وأصبحا وجهاً لوجه ، واستسلم العرب لهذا الحادث الجلل الذي حول صفحة التاريخ ونقل الخلافة من قریش إلى الترك وارتبط التاريخ الإسلامي الأممين برباط واحد وكان الأتراك يحترمون العرب لمساكنتهم المعروفة في الإسلام فإن العرب هم الذين حملوا هذه العقيدة إلى العالم ونشروها وحملوها حتى استقرت في أرجاء المعمورة

وقد أضاعت قلوب الأتراك فيهن أضاعت من قلوب الأمم . لقد اشتركت
الأمتان في السراء والضراء وصار العربي يحارب مع أخيه التركي جنباً إلى
جنب دفاعاً عن العقيدة . وأخذ العرب مرا كزهم في الدولة .

وهنا تمللت اليهودية العالمية مرة أخرى وأخذت تنشر دعاياتها في
العالم الغربي على السنة علمائها وساستها والقائمين بالاستشراف من أبنائها .
وظفقت تصور للغربيين الإسلام في صورة الطامح للفتح واكتساح العالم
خاصة بعد أن وقف العرب في يوم من الأيام على جبال البرنات ووقف
الأتراك على أبواب فينا ، ورأى المستشرقون قوة الإسلام متمثلة فيها
تسمعه آذان المؤمنين في الآيات التي تقول لهم : إنما المؤمنون الذين إذا
ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى
رؤسهم يتوكلون .

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ،
ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب
من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

« يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحْيِيكم
واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ، واتقوا فتنة
لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ،
واذكروا إذ أنتم مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس
فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون .

يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم
وأنتم تعلمون .

يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم
تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم
واصبروا إن الله مع الصابرين .

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ، وإن جنتحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم .

قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدهم صاغرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهدده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم .

وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون . يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجندوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين .

هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً .

إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون .
والقرآن مملوء بمثل هذه الآيات التي فيها الشدة والعزة والصبر والثبات
والإنذار والتبشير والوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، والإعلاء
والترابط والتراحم والتعاون والنزوع إلى الحرية .

وتميل الآيات التي تشقف الأنفس وتهذبها وتلين الطباع وتسمم مكارم
الأخلاق لتكوين الشخصية ، شخصية الأمة المحترمة .

كما لفتت اليهودية أنظار الغرب إلى موقع البلاد العربية الاستراتيجية
والاقتصادية ، فإن كعب الأحبار المتأمر على الخليفة الثاني لا يختلف عن
عبد الله بن سبأ الذي أطلق فكرة تأليه البشر وتأمر على قتل الخليفة
الثالث وأشعل أتباعه نار الفتنة في واقعة الجمل ولا يختلف عن يعقوب
ابن كلس وزير الإخشيدى الذي دل المعز لدين الله الفاطمي على عورات
البلاد في حكم سيده وهذا لا يختلف عن دزرائيلي الذي اشترى لقومه
أسهم قناة السويس واحتجج للانكاز جزيرة قبرص .

وهكذا توافقت الأمم ذات المصالح إلى مكانة البلاد العربية
والامبراطورية العثمانية وفتحت عيونها على هذه الدعايات اليهودية
وربطت كل ذلك بالأمور الاقتصادية والمواقع الاستراتيجية والمصالح
السياسية وكان من مجموع ذلك كله فكرة الانتباه إلى الشرق العربي
بصورة خاصة .

وكان أشد دول الغرب اتجاهاً إليه بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا .
أخذت هذه الدول تتدخل في شؤون الدولة العلية في كل فرصة تراها
وبدأت بريطانيا تنظر إلى الخليج العربي وأجزاء تركيا الأخرى نظر
الطامع وشرعت فرنسا تنظر إلى شمال أفريقيا نظر المستأثر صاحب الحق .

ففي عام ١٨٧٨ أخذت بريطانيا قبرص من الالة العثمانية نظير
دفاعها عنها في مؤتمر برلين لتكمل سلسلة ممتلكاتها في البحر الأبيض

المتوسط . ثم التفتت إلى الجنوب حيث مر طريق الهند فأخذت تبسط نفوذها على أطراف الجزيرة العربية من الجنوب والشرق فاستولت على عدن وحضر موت عام ١٨٣٩ وشرعت تعقد مع شيوخ المقاطعات المجاورة للخليج والجزر الموجودة فيه سلسلة من المعاهدات ما كانت إلا سلاسل وقيوداً أدت إلى الاستيلاء عليها وضمها إلى التاج البريطاني . وكانت القاعدة الأولى التي وثبتت منها بريطانيا على العراق في الحرب العالمية الأولى .

وكما لعبت اليد اليهودية في أخذ قبرص أخذت تلعب في مصر ، فقد استطاع دزرائيلي أن يشتري لبريطانيا ١٧٦ سهماً من أسهم قناة السويس من الخديوى الذى أثقلته الديون فأصبح لها ٢٠٧ آلاف سهم من أصل (٤٠٠٠) سهم فى القناة ، وبهذا أخذ أخطبوط الاستعمار يمد خرطوميه واتهزت بريطانيا فرصة اضطراب البلاد فاتفقت مع فرنسا لإرسال أسطول مشترك إلى الإسكندرية واتخذت عذراً نافهاً لإطلاق يدها ومدافعها على هذه البلاد الآمنة وفى ١١ حزيران عام ١٨٨٢ ضرب الأسطول البريطانى مدينة الإسكندرية ودك حصونها ثم أنزلت بريطانيا جنودها إلى البر ، وفى ١٣ إبريل عام ١٨٨٢ التقت جيوشها بجيش عرابى عند التل الكبير فغلب الجيش المصرى على أمره وسارت جيوش بريطانيا إلى القاهرة فاحتلتها ثم أضافت السودان إلى ذلك . ولا تزال مصر تنوء بهذا الاغتصاب وتعمل ليل نهار للخلاص منه .

وفى عام ١٨٣٠ أقدمت فرنسا على فتح الجزائر فأنزلت جنودها منتحلة أعذاراً تافهة ونشرت المنشورات المذرة بالاستيلاء على البلاد وإخراج العثمانيين منها فغضب العرب لهذا الخطب الجمل وانقضوا على فرنسا وأجبروا جيوشها على التقهقر إلى الشواطىء ، ولكن ما لبث الأمر قليلاً حتى عاد الفرنسيون واستولوا على وهران فانتشر الذعر وسادت

الفوضى وأتمر العرب فيما بينهم ، وكان من بين المؤتمرين محي الدين الحسيني والد عبد القادر الجزائري ، وبعد المداولة والتشاور قرر الرأي على مبايعة سلطان مراکش مولاي عبدالرحمن ، فقبل وأخذ الجزائريون يخطبون باسمه على المسابر فغضب الفرنسيون من أجل ذلك . وبعثوا إلى عبد الرحمن يهددونه بالحرب أو يسحب جنوده من الجزائر فخشيتهم وانسحب .

وأراد الجزائريون مبايعة محي الدين فأبى ودلهم على ولده عبد القادر الجزائري فوافقوا وبايعوه فعقد العزم على طرد الفرنسيين ونازلهم وغلبهم واضطر قائدهم على الصلح ، وعقد معه معاهدة عام ١٨٣٤ ولكن الفرنسيين شأن كل مستعمر لا يراعون إلا ولا ذمة ، وكان عبد القادر يعتقد أنهم سوف لا يفون بما عاهدوا الله عليه فأخذ يعد لهم ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل ، فشرع يصب في بلاده المدافع ويصنع الأسلحة استعداداً لمنازلتهم ، وظلت الحرب بينه وبينهم سجالاً وكثيراً ما كانت الغلبة له .

وهنا أيضاً بدأت اليد اليهودية تلعب واستولى الفرنسيون على تلمسان ووضعوا ضريبة على يهودها فندم اليهود وأخذ يتمنون العودة إلى عبد القادر فعاد إليهم واسترجعها .

وعادت فرنسا تفاوضه بأمر الصلح وبعد المداولات تم الأمر على أن يتعهد عبد القادر بعدم السماح لأي دولة أجنبية بالاستيلاء على شيء من شواطئ بلاده إلا بمشورة فرنسا وأن يكون لكل من الأمير وفرنسا قناصل في بلاد الآخر .

فلما اطمأن الأمير إلى هذه المعاهدة شرع ينظر في إصلاح أمور بلاده الداخلية وابتنى مدينة سماها مقدمة ونظم جيشه تنظيماً غربياً وأنشأ

المدارس في كل مكان وعزم على افتتاح جامعة تجمع بين الثقافة الإسلامية وبين العلوم الحديثة ، وبينما كان الأمير منصرفاً إلى إصلاحاته نقصت فرنسا عهداً أيضاً . فاستولت على قسطنطينية واعتذرت عن عملها بأن المعاهدة تقضي بذلك مستندة إلى تحريف في نصوصها .

وفي عام ١٨٤٠ عززت فرنسا قوتها تحت إمرة قائد جديد فضيق الأمر على عبد القادر .

كان الأمير صنع مدينة متقلة سماها الزملة ، فلما سمع الفرنسيون بها أخذوا يعملون ليل نهار حتى أحرقوها ، وكان لهذه المدينة من الفوائد ما لها .

ظل عبد القادر يحارب الفرنسيين خمسة عشر عاماً حتى أنهكه التعب وأسلمته الخيانة ، فقد نفّض سلطان مراكش يده منه بل أعان الفرنسيين عليه ، ولما بلغ منه اليأس مبلّغه سلم نفسه إلى الفرنسيين وبهذا التسليم طويت صفحة عربية جليلة طواها الاستعمار وانطلقت فرنسا تعمل في البلاد ما تشاء وتريد . أكرم الفرنسيون مشواه وفرحوا بهذا التسليم ، ثم ما لبثوا أن اعتقلوه وسجنوه فصبر على هذا المكروه . ثم تيقظ ضميرها فأطالقت سراحه ، واختار دمشق مقراً له ، وبقي فيها معزلاً مكرماً يؤلف ويرشد ، وكان وجوده في دمشق عاملاً من عوامل إيقاف الرقود .

انتهت فرنسا من الجزائر فوجهت عنايتها إلى تونس مع أن إيطاليا كانت قد وضعتها نصب عينها طمعاً في الاستيلاء عليها معتقدة اعتقاداً جازماً أن ذلك من حقها .

وفي عام ١٨٨١ احتلت فرنسا تونس وفرضت الحماية عليها بمعاهدة أمّلتها على الباى ، وكان سبب ذلك أن لفرنسا ديناً على تونس بمبلغ قدره

١٢٥ مليون فرنك وقد عجزت تونس عن أدائه وتشبثت بأمر تافهة أرسلت على أثرها حملة تأديبية ، ووقع الباي بعد ذلك معاهدة تضمنته على الاعتراف بأن لفرنسا حق الرقابة على مالياتها كما لها الحق في إدارة شئون تونس الخارجية .

وفي معاهدة الحماية التي وضعت على تونس جعلت فرنسا للباي جعلا يقيم أوده ويصلح البلاد وقدر هذا الجعل ١٢٥ مليون وبذلك انسحبت تونس عن البلاد العثمانية بعد أن كانت جزءاً منها بالاسم .

وأخذت فرنسا تزحف على مراکش وهو القسم الأخير من البلاد العربية من جهة الغرب ، وكان هذا القسم العربي مستقلاً لم يخضع للعثمانيين لمناعته وقوة شكيمة أمهله ، ولكن الاستعمار أبى أن يتركه حراً وفعلت فرنسا الفعائل في إقناع الدول المتزاحمة حتى تم لها الأمر بتأييد بريطانيا وأمريكا وروسيا ، ولم يزاحمها غير ألمانيا وأسبانيا ، وأطلقت فرنسا يد أسبانيا في الريف المغربي وشرعت تنفذ خططها خطة بعد خطة حتى كانت اتفاقية فاس في ٤ أيلول عام ١٩١١ حيث اعترفت ألمانيا بحق فرنسا في مراکش .

وفي اتفاقية يناير عام ١٩٠٦ انتدبت فرنسا لحماية حقوق جميع الدول في مراکش واشترط لذلك أن تكون الجمارك تحت مراقبة دولية .

وأن تكون مراکش مستقلة بشرط أن يدير مالياتها بنك حكومي يكون مقره في طنجة يكون تحت مراقبة بنوك الدول وأسهمه موزعة بالتساوي بينها وفرنسا حصة الأسد من ذلك .

ولما رأت إيطاليا ما فعلت بريطانيا وفرنسا أقدمت على احتلال طرابلس الغرب وبرقة وأنذرت الدولة العثمانية النائمة وأنزلت جيوشها في البر بعد مقاومة عنيفة من الحامية التركية والسكان العرب وزحفت

تلك الجيوش تفتك بالبشر دون رحمة لا تتورع في الإجهاز على الجريح وقتل الشيخ الطريح والمرأة الحاملة والطفل البريء ، أما المقاتلة فليس لهم شفاعة في ضمير الإيطاليين .

وهكذا أصبحت البلاد العربية التي كان يجب أن تكون كلها جزءاً عظيماً وعوناً كبيراً للإمبراطورية العثمانية ، مجزأة يحتل قسماً كبيراً منها ثلاث دول فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وشرعت هذه الدول تتنافس على البقية الباقية التي انحصرت في قلب الجزيرة : اليمن وتجد والحجاز وبلاد العراق وبلاد الشام .

فتح العرب عيونهم على هذه الأحداث فرءوا أنفسهم في خطر محقق وعيون الغرب تترصد بهم الدوائر وتركيا على فراشها تحتضر واسكن رغم هذا الاحتضار نبطت فكرة القومية التركية وبدأ الصراع بين الأمتين بأخذ دوراً مهماً في كيان الإمبراطورية العثمانية .

عوامل اليقظة

بسطنا في فصولنا السابقة أن للعرب ذخيرة فكرية ممتازة تتمثل في القرآن والحديث والأدب وما أنتجه الفكر العربي في عصوره الزاهرة وذكرنا كيف استطاع ابن تيمية أن يوجه الأمم الإسلامية والعربية إلى هذه الثروة وكيف سار على نهجه ابن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده . وأن هذه الثروة مثلها كمثل الجمر غطاء الرماد لا يحتاج إلا إلى قيس يزيد اشتعالاً لينتهب ويضيء فينير الأرجاء . فإذا قيل إن الغرب احتك بالشرق فأخذ الشرق عنه . فقديماً كان الغرب في ظلام دامس وكانت فيه كل مقومات الحضارة الكامنة مما خلفه الإغريق والرومان أغطشت سماء الغرب حيناً من الدهر حتى جاءت حضارة العرب الزاهرة ونقلت إليهم هذا التراث تارة أخرى وأحدثت فيه تلك الهزة العنيفة

التي كانت هذه الحضارة من نبعائها . وهكذا أعاد الغرب تلك اليد إلى بلاد الشرق فكانت غزوة نابليون قبساً أثار الشعلة . فقد جاء نابليون إلى مصر لا ليبحث في الشرق نهضة أو ييقظ النيام فيه وإنما غرضه من هذه الحملة الاستيلاء على مصر لمكاتها في الشرق العربي ولأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية فهي سوق واسعة لفرنسا وهي مركز مهم بين الشرق والغرب وهي نقطة يمكن منها القضاء على نفوذ بريطانيا في الشرق ثم هي بعد جسر مهم بين البحرين الأبيض والأحمر . زد على ذلك ما كان يدور في أذهان رجال الدين من رد الصاع بالصاع ، فقد كانت مصر كنانة هذه العقيدة ردت الصليبيين وردت التانار وحفظت التوحيد من كيد الكائدين كل أولئك وغيرها هيأت هذه الحملة الجبارة المجهزة بالعلماء والمختبرات .

فتح العرب في مصر عيونهم على رجال هذه الحملة ورءوا شيئاً عجيباً رءوا صحة ونشاطاً . وعملاً مشمراً فأثار في نفوسهم أملاً وبعث ثقة بأن الإنسان إذا أراد أن يفعل شيئاً فعله .

أبحر نابليون في ١٩ مارس عام ١٧٩٨ متجهاً إلى مصر فاضطربت فرائض بريطانيا لهذا الحادث الجليل ، ولكن كيد نابليون غلب كيد خصومه ووصل مصر وبعد مواقع حربية بينه وبين المماليك استطاع أن ينزل القاهرة وأن يعلن المأ أنه لا يريد محو دين البلاد وإنما جاء منقذاً لها من يد الظالمين وأنه يدين بدين الإسلام بل هو مخلص للسلطان . وغير ذلك مما يهدى الخواطر . ثم أصدر لجنوده الأوامر بعدم التعرض لأحد وأن يتوددوا للناس فاطمأن المصريون له ولجنوده . وأخذ نابليون يزور العلماء والمشايخ ووجوه البلد في بيوتهم حتى إذا تم الاطمئنان من الجهتين شرع نابليون يدرس طبيعة البلاد فأنشأ مجمعاً علمياً . مكوناً من

ثمانية وأربعين عضواً في أربعة أقسام : قسم للرياضيات وقسم للطبيعيات وقسم للاقتصاد السياسى وقسم للآداب وجعل رياسته لأحد هؤلاء العلماء وأنشأ جريدتين ومدرستين ومسرحاً للتفصيل وبنى المصانع ومعملاً للورق وأسس مطبعة وفتح مكتبة عامة جمع فيها الكتب من بعض المساجد وأضاف إليها ما جاءت به الحملة وجعلها مباحة لكل من يريد الدخول فيها . وقد قام المجمع بأبحاث قيمة وكانت هذه الأبحاث تنشر كل ثلاثة أشهر وكان رجال هذه الحملة شبه مدرسة سيطرة تعلم منها أهل مصر حياة جديدة فى العمل والانتاج بل حتى فى الأمور الاجتماعية . ومن مآثر هذه الحملة العلمية عشورها على حجر رشيد الذى كان الأثر الكبير فى دراسة التاريخ المصرى القديم . لقد نظم نابليون جهاز الإدارة فى مصر وأنشأ الدواوين ورتب أمور المالية وعين لها الأكفاء من بنى مصر . وقد كان حظ مصر عظيماً إذ انتهت الحملة إلى هذا الحد من الفائدة فحفظ الله كنهاته وعمل الحظ عمله وتوالت الظروف فى جانب مصر فجلا الفرنسيون ومن سوء حظ هذه الحملة أن نقض رجالها العهد فأطلق الجنود أيديهم فى القرى ينهبونها ولم يعبئوا بتقاليد الشعب وديانته وفرضت الضرائب فسكان كل ذلك سبباً لشورة أكتوبر عام ١٧٩٨ إذ تجمهر الناس وذهبوا لرفع الشكوى وعندما علم حاكم القاهرة الفرنسى خرج إليهم فأصيب بحربة من يد وطنية قضت عليه فاغتاظ الفرنسيون ونصب نابليون مدافعه على المقطم وأخذ الثورة بقوة وشدة أثارت الكره والحقد فى نفوس المصريين . ومهما يكن فقد أفادوا من هذه الحملة فائدة كبرى تركت أثراً كبيراً فى حياتهم وكانت نواة للنشاط الذى استقبل به محمد على الشعب المصرى .

محمد علي

تولى محمد علي ولاية مصر في ١٣ مايو عام ١٨٠٥ والبلاد لا تزال نشوى بما رآته في حملة نابليون من النشاط والحياة الجديدة .
ولسكنها في اضطراب مالي وفوضى في الإدارة فأول ما عمل أنشأ المجالس والدواوين وقسم القطر إلى مديريات ومحافظات وكان الديون العالي بمثابة رئاسة الوزارة تتبعه فروع كل فرع له اختصاص كديوان المدارس وديوان الحربية وهو بمثابة وزارة المعارف ووزارة الحربية وأنشأ عام ١٨٢٩ مجلس المشورة وهو الذي يختار أعضائه بنفسه من الأعيان ورجال الدولة والعلماء ومهمته النظر في المشروعات الكبرى ويرأس هذا المجلس ولده إبراهيم . واتجه إلى الإصلاحات التجارية والزراعية والرى وكان في كل ذلك موفقاً جداً التوفيق .

واهتم بالتعليم اهتماماً عظيماً ففتح مدارس الناشئة في القرى والأرياف والمدن . وأنشأ مدرسة للطب البشري ومدرسة للطب البيطري ومدرسة للهندسة ومدرسة للزراعة وأنشأ مدرسة الترجمة لنقل آثار الغرب إلى لغة العرب وجلب لهذه المعاهد أكابر الأساتذة من الفرنسيين لقد كان في الأزهر لمحمد علي مادة قوية ومصدر عظيم فأرسل منه البعثات إلى أوروبا ففي عام ١٨٢٦ أرسل أربعة وأربعين طالباً وأخذ هذا العدد يزداد حتى جاوز المائة .

وعاد هؤلاء الطلاب من أوروبا بعد أن تخصصوا في العلوم والفنون على اختلاف أنواعها من طب وهندسة وكيمياء وزراعة وري وميكانيكا وطباعة وحفر فكانوا خير عون لهضة محمد علي . وأقام المطبعة الأميرية على أنقاض المطبعة الأهلية التي كان الفرنسيون أتواها معهم ثم ذهبوا بذهابهم . وأصدر الجريدة الرسمية عام ١٩٢٨ .

وكان من أبرز رجال بعثته رفاة بك الطهطاوى الذى ينتهى نسبه إلى الحسن بن علي . نشأ هذا العالم فقيراً ولكنه كان شغوفاً بالعلم وساعده اجتهاده إلى أن ينال حظوة عند محمد علي فأرسله ليكون إماماً لطلبة البعثة فقام بواجبه على أتمه ولكنه افترض الفرصة وانتسب إلى الدراسة شأنه شأن إخوانه ، فبرز وتقدم ولما عاد أحدث ثورة أدبية في الترجمة وهو الذى اقترح تأسيس مدرسة الألسن فكان مديرها ورئيس تحرير الوقائع المصرية وقد ترجم كتاب مبادئ الهندسة .

وجملة القول أن محمد علي أوجد جهازاً إدارياً محكماً استطاع به أن يوجد دولة حديثة ذات كيان يخشى بأسها ويسمع قولها وكان يرى من وراء ذلك إلى إيجاد مملكة واسعة الأطراف تلتطم جميع البلاد الناطقة بالضاد ومن ثم تلتقل إلى الخلافة الإسلامية وقد لاحت هذه الفكرة في مخيلة محمد علي حين قضى على الحركة الوهابية في مهدها كما قدمنا سابقاً فقد خبر بنفسه بلاد العرب وعجم قوتهم ولم تكن في الجزيرة قوة عربية تصمد للحرب غير تلك القوة التي غلبها على أمرها . إلا أن هذا الحلم لم يكن واضح الخطوط عنده فالدولة العثمانية التي يتبعها ان تفسح له المجال في تحقيقه ونتيجة الأمر القضاء عليها حتماً . زد على ذلك ما يقوم بوجهه من العقبات التي تقيمها مصالح الدول الكبرى . فان بريطانيا لا يسهل عليها أن تقوم دولة عربية فتيحة قوية في طريق الهند . ومن مصلحتها أن تبقى تركيا مملكة زمام الأمر رغم ضعفها ، فان هذا الضعف يسهل على بريطانيا أن تتدخل في شئونها وتلج عليها ما هو في صالح طريق الهند فاذا أقام محمد علي دولة فتيحة في هذا الطريق وجب على بريطانيا أن تكون في موقف تمنع فيه أن يمس هذا الطريق أو يتحكم فيه . والعقبة الثالثة التي تقف في وجه محمد علي عدم استعداد العرب لقبوله خليفة عليهم خاصة

بعد ما قام بقمع حركة ابن عبد الوهاب وترك جرحاً عميقاً في قلوب أبناء الجزيرة .

أما ولده إبراهيم فقد كانت الفسكرة واضحة في مخيلته وكان يبشر بها دون خوف . لقد نشأ إبراهيم في بلاد عربية وربى تربية عربية وتكلم بلسان عربي فصيح بخلاف أبيه الذي لا يقيم كلمة . لقد درس التاريخ العربي الذي هو جزء من التاريخ الإسلامي وتمكن في نفسه ميل قوى لهذه الأمة بل أصبح يعد نفسه عربياً وكان لا يتوانى عن التصريح بذلك . فماذا يفعل محمد علي ياترى لتحقيق فكرته وإجابة رغبة ولده إبراهيم لقد انتحل شتى الأعذار لغزو سوريا وكان أهم هذه الأعذار نزاع قام بينه وبين عبد الله الجزار والى عكا ؛ لأن عدداً من الفلاحين المصريين هاجروا إلى عكا فراراً من أعمال السخرة ودفع الضريبة وهروباً من خدمة الجيش ولما طلب محمد علي إرجاعهم أبى عليه الوالى .

وقد أعدت الحملة لتأديب الجزار غير أن محمد علي كان يخفى وراء ذلك هدفاً أعظم . وتظاهر بالولاء للسلطان وفى ٢٩ أكتوبر عام ١٨٣١ سار جيش محمد علي زاحفاً على سوريا . وذهب ابنه إبراهيم القائد العام لهذا الجيش بجرأ . ولم يلق الجيش مقاومة فى طريقه حتى وقف على أبواب عكا . وكان يلقى ترحيباً كلها من على مدينة .

حاصر إبراهيم باشا عكا من البر والبحر مدة استسلمت بعدها رغم محاولة الدولة العثمانية لك الحصار عنها بجيش لجب ، وسقطت عكا فى ٢٧ مايس عام ١٨٣٢ . كان لسقوط عكا أثر كبير فى نفوس أبناء الشام فأقبلت القبائل والوفود فرحة مستبشرة بهذا الفتح وعرضوا أنفسهم لمساعدة الجيش المصرى وانضم الأمير بشير الشهابى إلى محمد على وساعد الجيش المصرى مساعدة فعالة . غضب السلطان على محمد على وأصدر إرادته السنية بعزله وعزل إبراهيم عن بلاد العرب . فاهتم محمد على للأمر

وعرض على السلطان خضوعه بعد فتح عكا ورغب في وقف القتال على أن يوليه السلطان أمر الشام فأبى السلطان ذلك . لقد كانت هذه هي أمنية محمد علي فأو ضم السلطان إليه بلاد الشام لاشتمد ساعده وقوى أمره وصار من السهل عليه أن يستولى على البلاد العربية المجاورة . ولما أصر السلطان على إباطه تقدمت الجيوش المصرية تهزم أمامها جيوش السلطان فبلغ إبراهيم «أذنه» واستمر حتى بلغ «قونية» والتقى بجيش الخليفة الذي كان بقيادة محمد رشيد باشا فهزمه شر هزيمة واستولت جيوش إبراهيم على أكثر بلاد الأناضول وزاد الطين بلة استسلام الأسطول التركي إلى محمد علي ، وهكذا بقيت الدولة بلا جيش وبلا أسطول . فلم ير السلطان بدا من المهادنة وعقدت بين الطرفين اتفاقية «كوتاهية» التي تقضى بمنح محمد علي بلاد سوريا علاوة على مصر وتهيئ ولده إبراهيم والياً على أذنه . لقد أطاعت يد محمد علي في بلاد الشام . وتحققت الرغبة التي كان يتمناها إبراهيم . فبدأ يبت آراءه ويحث الناس على تكوين حكم عربي مستقل عن الخلافة ولعل هذا الصوت كان أول صوت من نوعه في بلاد الشام بعد ذهاب الأمر من يد العرب في العالم الإسلامي .

انصرف إبراهيم إلى تنظيم شئون الإدارة وكون جهازاً حكومياً عادلاً وفتح المدارس ونشر الثقافة وسهل لجمعيات التبشير الآتية من الغرب فتح مدارسهم وممارسة أعمالهم . وظل يعلن على الملأ ضرورة تكوين دولة عربية في هذه البقعة من الشرق الأدنى . ولكن مصالح الدول التي تتضارب في هذه البلاد وقفت دون ذلك . وبقيت هذه الفسكرة حليماً يتردد في مخيلة إبراهيم وأبيه قضت عليه دسائس السلطان وانحرف إبراهيم باشا في سياسته في هذه البلاد وميله إلى الشدة في ابتزاز المال ووضع الضريبة وتنفيذ التجنيد الإجباري ونزع السلاح ، كل ذلك

أثار حفيظة أهل البلاد وثاروا ضده . وكان ذلك إيذاناً بعدم الرضا
فطويت القلوب على السكراية والحقد .

البعثات التبشيرية

بينما كانت بعوث محمد علي مستمرة إلى بلاد الغرب واستقدام
الأساتذة لنشر التعليم الصحيح في البلاد لا ينقطع وحركة ابن عبد الوهاب
في الجزيرة لا تزال قائمة والأزهر مفتوح الأبواب يمد والى مصر بالمشتفين
لإرسالهم إلى بلاد الغرب والجريدة الرسمية في مصر تنشر على الناس
نجد البعثات التبشيرية الآتية من الغرب تنشط في أعمالها في فتح المدارس
وتشقيف الناشئة لإيجاد جيل جديد يفهم الدين بلغة البلاد ، وكان للتنافس
الذي حدث بين مبشري جمعيات البروتستان وجمعيات الكاثوليك أثر
كبير في انتشار المدارس ، وقد ساعد إبراهيم باشا على هذا الانتشار
بما بذله لهذه الجمعيات من التسهيلات ، وقد كان إبراهيم نفسه فتح المدارس
والكليات في بلاد الشام على غرار بعض ما فعل أبوه في مصر . وبذلك
بدأت نهضة ثقافية باللغة العربية ، لغة أهل البلاد . وكان إبراهيم يرمى
من وراء ذلك أن يرفع الناشئة مع أفريق العلم أفريق الوطنية والقومية .
بدأ البروتستان بترجمة الإنجيل إلى العربية واستعانوا على ذلك بالأديب
المشهور بطرس البستاني كما استعانوا بالشيخ إبراهيم اليازجي لتأليف
كتب القواعد وآداب اللغة العربية لتوضع بيد الناشئة في مدارسهم .
الكاثوليكية وأقدم هذه المدارس وأهمها مدرسة عنقورة أنشئت عام ١٧٢٨
وأغلقت ثم أعيد فتحها عام ١٨٣٤ ، والكلية السورية أنشئت في بيروت
عام ١٨٦٦ وهي بروتستانية . وهناك مدارس أخرى انتشرت في القرى
والأرياف .

لقد أراد الغرب من وراء هذه الجمعيات التبشيرية ومدارسها أن يجد

له باباً يدخل منه إلى البلاد العربية كي يفرق بينها وبين السلطان كما كان يفعل في البلقان في إثارة الأقليات والقصد من وراء ذلك كله إضعاف شوكة الدولة العثمانية والتدخل في أمورها ، وقد لا تخلو حوادث ١٨٦٠ في دمشق من يد خفية .

ومهما يكن فإن هذه المدارس التبشيرية أوجدت جيلاً جديداً من رجال الدين يتكلمون ويخطبون ويعظون بلسان عربي مبين وأوجدت طبقة ممتازة من الأدباء والشعراء يستمدون معانيهم وألفاظهم من ذخيرة اللغة العربية ، كانت المدارس الإسلامية وحدها تضطلع بدراسة القرآن تراث العربية ، فلما جاءت إرساليات البروتستان إلى بلاد الشام للتبشير بمذهبهم الذي من أسسه الأولى أن يتلى الإنجيل باللغات المفهومة وأمنت الكنيسة بدراسة اللغة العربية وآدابها لتحقيق ذلك صار من السهل جداً على أبناء البلد الواحد أن يتلاقى شعورهم في صعيد واحد . وكان يمكن أن تكون الفائدة أتم لولا مطامع بعض الدول فإن فرنسا كانت تطمع في الاستيلاء على سوريا ولبنان وكانت لا تني تستغل هذه الجمعيات التبشيرية ومدارسها لتحقيق هذه المطامع وتسخرها لمآربها بناء على ما تقوم به من المساعدات المادية والأدبية وكان طبيعياً أن تختلف الآراء حسب الأهواء والظروف الخاصة بكل فريق من أبناء البلاد .

حركت الدراسات العليا والمطابع والصحف والحركات التحريرية في بلاد الغرب كوامن القومية في نفوس الكتاب والشعراء والمفكرين وأثار ظهور اللغة العربية في مصر وبلاد الشام والعراق تارة أخرى مادة للترجمة والتأليف أحياء أمجاد الماضي والاستفادة منها وتقديم العلماء والكتاب والأدباء يبشون آراءهم ويهيئون البلاد لبعث جديد .

الأدباء والكتاب

زخر مستهل القرن التاسع عشر ومنتصفه بالعلماء والأدباء والساسة والمصلحون وملاّت أصواتهم سمع العالم العربي في استنهاض الهمم وبعث الرمم ، وكان مبعث ذلك هذه الموجة الدافقة من اليقظة التي عمّت العالم أجمع وفتحت عيون العرب على حيوية الغرب ونشاطه وأطماعه ، وكانت بلاد الدولة العلية هدف هذه الأطماع وكان الصراع يدور حول أطرافها وأوساطها . تملّمل العالم العربي بعد جلاء الفرنسيين عن مصر وتفتحت الآفاق عن نشوء مصر الفتية في نهضة علمية شاملة بعثت عدداً من أجلة العلماء والأدباء ، وكانت بعض المدارس الدينية في بعض البلاد الإسلامية لا تزال في خير يظهر فيها أجلة من العلماء في غفلة من غفلات الزمن ، وهكذا أجمبت مصر رفاعة بك الطهطاوى ١٨٠١ - ١٨٧٣ وهو الذى يسمونه أبا النهضة المصرية نشأ فى أسرة فقيرة الحال غنية النسيب ينمى إلى الحسن بن على ، درس فى الأزهر وعين مدرساً فيه وهو لم يبلغ الثانية والعشرين وقد عين واعظاً وإماماً فى جيش محمد على ، فلما أرسل محمد على بعوثة العلمية إلى باريس اختاره ليكون إماماً لهذه البعثة ، فأكب على الدرس شأنه شأن إخوانه ، فدرس اللغة والفلسفة وطالع كتب الأدب لأكابر الشعراء والأدباء . ولم يكتف بذلك فقد درس كتب المعادن والرياضيات وغير ذلك . ولما عاد إلى بلاده رأى أن ينقل ما يستطيع من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية فترجم وألف ومن جملة ما ترجم الدستور الفرنسى ، عاد إلى مصر بعد ست سنوات وتولى منصب الترجمة وتدرّس اللغة الفرنسية فى مدرسة الطب ثم نقل إلى مدرسة المدفعية فترجم علوم الهندسة وفنون الحرب ، وترجم كتاب الجغرافيا مؤلفه ملتيرون .

وعهدت إليه الحكومة ترجمة قانون نابليون فنقله إلى العربية وأخرجه مع رفاقه من مدرسة الألسن في مجلدين وهو الذى اقترح إنشاء مدرسة الألسن وقد صار فيما بعد ناظراً عليها . وهكذا قدم هذا العالم لأمة ثروة من العلم وفى العراق كان من أبرز العلماء شهاب الدين محمود الألوسى ١٨٠٢ - ١٨٥٤

درس الفقه وعلوم العربية على أجلة العلماء فى عصره فبرع بها واشتغل بالتأليف والتدريس وهو لا يزال صغير السن وكانت مدرسة المرجانية ببغداد موضع عمله وإلقاء دروسه وقد تقلد عليه كثير وتخرج على يديه أجلة من العلماء ، ألف تفسيره المعروف بروح المعانى ويعتبر من أجل التفاسير ويقع فى تسع مجلدات جمع فيه صفوة ما جاء فى التفاسير الأخرى .

وجاء بعد محمود شكرى الألوسى الذى توفاه الله عام ١٩٢٣ ، وهو واضع بلوغ الأرب فى أحوال العرب وكان لمؤلفه هذا رنة إعجاب فى العالم الغربى والشرقى وصف فيه أحوال العرب الاجتماعية والأدبية ودحض جميع ما ألصقه الموالى والشعوبيون بالعرب مما ليس فيهم .

وفى لبنان ظهر ناصيف اليازجى ١٨٠٠ - ١٨٧١ ولع بالأدب ولم يكن فى متناوله ما يشبع رغبته من الكتب فأخذ يفتش عنها فى الأديرة حتى إذا وقع على مخطوط أسرع فى نقله أو حفظه عن ظهر قلب فتكونت فيه ملكة النثر والنظم وعرف بين الناس بأدبه وعلمه فلما علم به الأمير بشير الثانى استكتبه ونال بذلك حظوة عنده . واتصلت به جمعيات التبشير من البرتستان فكتب لهم الكتب المدرسية فى اللغة والأدب والمنطق ولا تزال بعض هذه الكتب تدرس فى المدارس المسيحية بلبنان إلى اليوم .

وظهر أيضاً الشيخ بطرس البستاني ١٨١٩ — ١٨٨٣ فالف وكتب ، واستعان به البرتستان على ترجمة الكتاب المقدس ، وكاد يتمه لولا أن عاجلته المنية فأتمه فان ديك من بعده وفي عام ١٨٦٣ أنشأ في بيروت مدرسة عالية أسماها المدرسة الوطنية أسسها على الحرية الدينية ومبدأ الجامعة الوطنية العثمانية ، فأخذ يفد إليها الطلاب من سائر أنحاء البلاد ومن مصر والعراق وغيرها ، فرضيت عنه الدولة وأنعمت عليه بوسام عال مكافأة له على خدماته . ألف قاموسه المعروف بمحيط المحيط وفرغ منه ١٨٦٩ وأنشأ مجلة علمية أدبية سياسية سماها « الحنان » وقد بدأ بتأليف دائرة المعارف ولما أتم منها ستة مجلدات عاجلته المنية قبل أن يتم السابع فأتمه أولاده وذووه من بعده واستمروا في عملهم حتى بلغت أحد عشر مجلداً .

وقد مر بنا في الفصل السابق ما قام به جمال الدين الأفغانى فى أنحاء الشرق الأدنى وما قام به الشيخ محمد عبده والسيد عبد الرحمن الكواخلى فى هذه الحقبة من الزمن .

وصفوة القول كانت البلاد العربية تموج بمجموعة من أجلة العلماء والمصلحين أيقظوا فى كتاباتهم وخطبهم وأحاديثهم كوامن العزة فى النفوس ودفعوا الأمة إلى الحرية والاستقلال والطموح إلى السكالى وكان من نتائج ذلك شعور بالعمل المشترك فتألفت الجمعيات العلمية والأدبية فى بادىء الأمر ثم تطورت الحال إلى تأليف الأحزاب والجمعيات السياسية والنوادر التى تهدف فى أعمالها إلى الإصلاح وتغيير الأحوال إلى أحسن منها ويكاد تكون أول جمعية أسست هى الجمعية العلمية التى اقترح البستاني واليازجى على الأمريكان تأسيسها ولم تكن هذه إلا نتيجة يقتضيها العمل المشترك . وبرزت للوجود عام ١٨٤٧ باسم « جمعية الفنون والعلوم » وكان اليازجى والبستاني من بين أعضائها وكان جلهم من الأمريكان وقد تلتها للزاحمة والمنافسة « الجمعية الشرقية » التى أسسها

اليسوعيون عام ١٨٥٠ وأعضاؤها على غرار أعضاء جمعية الفنون والعلوم شوقيون وغربيون وكلهم من المسيحيين . انحلت هاتان الجمعيتان فتكونت على أثر انحلالهما « الجمعية العلمية السورية عام ١٨٥٧ وكانت تضم أعضاء من المسلمين والدروز والمسيحيين ، واجتمع هؤلاء الأعضاء في جمعية واحدة دلالة واضحة على ظهور الوعي القومي ، وكان إبراهيم اليازجي أحد أعضائها والأمير محمد أرسلان الدرزي رئيساً لها .

وفي شهر ديسمبر من عام ١٩٠٤ تأسست في باريس جمعية باسم رابطة الوطن العربي ، تديرها هيئة عليا وقد وجهت هذه الهيئة نداء إلى العرب القاطنين في تركيا وفي عام ١٩٠٥ وجهت هذا النداء إلى العالم الإنساني في أوروبا وأمريكا أبانت فيه مطالب العرب وقد صار هذا النداء فيما بعد أساساً للنهضة الأخرى فيما تأسس من الجمعيات ^(١) .

ظلت الأيدي الخفية تفعل فعلها في إثارة القلاقل وتنبية الأذهان إلى أعمال الدولة العثمانية ، وكانت قد أوفت على الشيخوخة من جراء النكبات التي أصابتها في البلقان وفي البلاد العربية فقد أخذ الظامعون ينتقصونها من أطرافها ، وشرعت الحركات الاستقلالية في المقاطعات التي تتكون منها عناصر هذه الامبراطورية تزداد قوة والدولة تزداد ضعفاً واثقلت الدولة بالديون ، وكانت فرنسا لا تني تحدث المشاكل وتعلن على رموس الملاءمة لها في بلاد الشام وبريطانيا جاثمة على فم الخابج وباب المنذب يههما ضعف الدولة على أي حال من الأحوال لتستطيع أن تملأ ما يفيدها في حفظ طريق الهند . ويعزوا المصلحون هذا الضعف إلى استبداد السلطان واستئثاره بالحكم ولذلك تأسست من بين رعايا الدولة جميعها جمعيات سرية وعلمية تمخضت كلها عن

تأليف جمعية هي : « الاتحاد والترقي » وكان أعضاؤها من بين جميع أجناس الإمبراطورية والعدد السائد فيها على الترتيب التالي : الأتراك ويشكلون الأكثرية ويليههم اليهود في السكثرة ثم تأتي بعد ذلك الأجناس الأخرى ، وكانت هذه الجمعية ترمي إلى إصلاح المملكة عن طريق إعلان الدستور وتقليل أظافر السلطان ولما علم أعضاء هذه الجمعية بما يبذره الغرب لهم في اقتسام إرث الرجل المريض أعلنوا الثورة وطالبوا عبد الحميد بإعلان الدستور فاضطر لذلك وأعلنه في يوم ٢٤ تموز من عام ١٩٠٨ .

كانت حالة الدولة سيئة جداً إبان إعلان الدستور وكان العرب مشفقين على بقية بلادهم من الضياع لأن الدولة العثمانية أصبحت لا تدفع أذى ولا تزيل شراً ، فأخذوا يفكرون في الأمر تفكيراً جدياً ووضعوا خطط الإصلاح التي يرمون من ورائها إلى الاحتفاظ بكيانهم ، فلما حدث الانقلاب الدستوري فرحوا به واستقبلوه بالبشر والحفاصة وانضموا إلى الترك علماً منهم بأنه لم يبق في الدولة اختلاف عنصرى بعد . كان إعلان الدستور إيناناً بانطلاق الناس من قيود الاستبداد وإعلاناً بانبعاج نورا الحرية فهب أقوام الإمبراطورية يؤلفون الجمعيات ويفتحون النوادي ويعلنون ما كان في أمرهم سراً . فقد كان للروم والأرمن جمعيات منظمة سرية جعلوها شرعية علنية وقام العرب فأسسوا جمعية « الإخاء العربى العثمانى » وفتحوا نادياً بهذا الاسم وكان من مبادئ هذه الجمعية الصداقة التركية العربية وقد تم افتتاحها رسمياً وحضره فريق من أعضاء جمعية الاتحاد والترقى وتهدف إلى تحسين أحوال العرب عامة وتشجيع التعليم وبث الآلفة بين أقوام الدولة العثمانية وكان باب الانتساب إليها مفتوحاً أمام العرب جميعهم على اختلاف نحلهم ، كما قررت أن تنشى لها فروعاً في الأقاليم العربية جميعها . وأنشأت فعلاً جريدة تبث فيها آراءها ومقاصدها .

لقد ظن العرب بالاتحاديين خيراً ووضعوهم بأيديهم ولكن ما لبث الأمر قليلاً حتى تغير وكان أبرز مظاهر هذا التغير ميدان الانتخابات البرلمانية فإن جمعية الاتحاد والترقي وجهتها وجهة تسكفل لها الأكترية وأن يرجح العنصر التركي على العناصر الباقية جميعها ، وبالرغم من تفوق العرب على الترك بالعدد فقد افتتح البرلمان في شهر كانون الأول وضم في أعضائه ١٥٠ نائباً تركيا و ٦٠ نائباً عربياً ، أما مجلس الشيوخ الذي كان يعين من قبل السلطان وكان عدده ٤٠ عيناً فلم يكن فيه إلا ثلاثة من العرب .

وما كانت هذه النتائج لترضى السلطان وهو الأمر الناهى وكان يتحين الفرص للخلاص من جمعية الاتحاد والترقي فدبر مؤامرة في اليوم الثالث عشر من شهر إبريل أعلنت فيها حامية القسطنطينية العصيان ، وهاجمت دار المبعوثان ، فافتحمتها وقتلت ضباطها ووزير العدل ونائباً عربياً هو الأمير محمد أرسلان مبعوث الشام . فلما سمع محمود شوكت باشا بذلك وهو عربي يتمتع برتبة عالية في الجيش وكان حينذاك قائداً للجيش في سالونيك ، تقدم نحو العاصمة وبعد قتال عنيف ومعارك سالت فيها الدماء دخلها ظافراً ، وبعد ثلاثة أيام أعلن خلع السلطان عبد الحميد ونصب مكانه أخوه محمد رشاد وعاد لجمعية الاتحاد والترقي نفوذها الأول .

بدأ سوء التفاهم يزداد بين العرب والاتحاديين من نتائج البرلمان ومن حلهم لجمعية الإخاء العربي العثماني وشرع الاتحاديون يناهضون العرب في إقصائهم عن الوظائف بحجة التمييز وقد نسق عدد كبير منهم في وزارتي الخارجية والداخلية ومنع قبول العرب ودعوتهم في الاجتماعات ودخولهم في الجمعيات الاتحادية أو حضورهم في المذاكرات السياسية التي كانت الجمعية تجتمع لها مع انتزاع وزارة الأوقاف من

الوزير العربي وإعطائها إلى وزير تركي واستبدال المتصرفين والقضاة من العرب بآخرين من الترك ، ومحاربتهم اللغة العربية .

أعلن الاتحاديون نياتهم وبدءوا سياستهم التي تستند إلى مبدأ سيادة الترك على العناصر الأخرى ، وتتركها جميعها ، وما دروا أن هذه المحاولة فاشلة ذلك لأن العرب يمثلون العنصر الأكبر في الدولة ولأن اللغة العربية هي لغة القرآن ، لها أدبها ومقوماتها ولها كياناتها الدينية واللغة التركية لغة ليس لها من الشأن ما للعربية ، فإذا نجحت هذه الفكرة في تتركك عنصر من عناصر الأقليات فلن تنجح عند العرب ولذلك ما كادت تظهر نياتهم للوجود حتى دب الانشقاق في الصفوف وانسحب جميع نواب العرب الذين كانوا معهم وانتموا إلى « حزب الحرية والاتلاف » الذي تأسس على قاعدة التآلف بين عناصر الامبراطورية جميعهم . لقد أخذ هذا الحزب يزاحم جمعية الاتحاد فخنقت عليه وظلمت تبرص به الدوائر حتى محته من الوجود قتلا وتهديداً .

تعاورت المصائب والكوارث على الدولة بعد إعلان الدستور ، فإن النمسا والمجر قد ضمت إليها البوسنة والهرسك في أكتوبر عام ١٩٠٨ وفي الوقت نفسه انفصلت بلغاريا وفي عام ١٩١١ اعتدت إيطاليا على ليبيا وبذلك فقدت الدولة طرابلس الغرب وبنى غازي ، وفي عام ١٩١٢ اندلعت حرب البلقان وقد فقدت الدولة أثناء هذه السنوات جميع ممتلكاتها في أوروبا ماعدا تراقية الشرقية .

كذلك فقدت جزيرة كريت وجزر الدوديكان . وقد تبين للعرب أن تركيا قد ضعف كاهلها أن تحمل أمانة بلادها وبلاد العرب بعد أن عجزت عن حفظ الروملی الذي هو حصن الآستانة أمام البلقان

وفي عام ١٩٠٩ دعا ضباط العرب أهل الرأي والمشورة من أعضاء

جمعية الاتحاد والترقي للتحفاهم وحسم هذا الخلاف الناشب بين أمتين
يربطهما تاريخ ومصالح مشتركة فقبوا الدعوة ولسكنهم لم ينتهوا إلا إلى
ما هو أسوأ . ولما لم يفد ذلك كله أخذ الشباب الوطنى يدعو إلى إيجاد
نظام جديد يسمى « اللامركزية » فهو أدعى إلى العمران مع إفساح المجال
لسكل عنصر أن يدفع العواذى عن نفسه . ونشط العرب فى هذه الناحية
لتأسيس النوادى والجمعيات والأحزاب ، ففى ١٩٠٩ تأسس المنتدى
الأدبى أسسه عدد من نواب العرب والكتاب والطلاب وكان يهدف إلى
غاية أدبية ، وقد ضمت إليه مكتبة ودار للضيافة وقاعة للمحاضرات ،
وقد أقام هذا المنتدى عدة حفلات وطنية حماسية . وأخذ يثب الدعوة
لهذه الحركة ، وقد أغلقت الدولة فى الحرب العالمية الأولى ، لقد كثر
الأعضاء المنتسبون إليه حتى بلغ مجموعهم الآلاف وأنشأ له فروعاً
فى أنحاء البلاد . ومن ميزاته أنه ملتقى الوافدين العرب من أنحاء البلاد كافة .
وفى عام ١٩١٢ تأسس حزب « اللامركزية الإدارية العثمانى »
فى القاهرة وهكذا أدت القاهرة واجبها بعد أن كانت مركزاً للقضاء على
حركة ابن عبد الوهاب ومن ثم القضاء على فكرة الخلافة العربية . وقد
تأسست له فروع فى سوريا والعراق وكان يهدف إلى إقناع الدولة العلية
بضرورة حكم اللامركزية وتوجيه الرأى العام العربى إلى المطالبة بذلك ،
وقد ظهر الحزب لأول مرة جريئاً ووقف وجهاً لوجه أمام الاتحاديين ،
وقد جاء فى المادة الثالثة من منهاجه : ليس هذا الحزب خفياً وليس فيه
ما بعد من الأسرار فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية
الواسعة جهراً وعلانية دون الخشية من أحد لاعتقاده يقينا أن الدولة
لا تبقى فى العالم السياسى إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية .
وفى المادة الرابعة منه : إن الدخول فيه مباح لسكل عثمانى بلغ
العشرين من العمر على شرط أن يكون أولاً من المتمتعين بجميع الحقوق

المدينة ، ثانياً : غير محكوم عليه بحكم نخل بالشرف ، ثالثاً : غير مشتهر بسوء السيرة ، رابعاً : أن يقبل القواعد المبينة في برنامج الحزب .

وفي عام ١٩١٣ تأسست الجمعية الإصلاحية في بيروت وأقرت منهاجها في جلستها الثالثة المنعقدة في دار المجلس البلدى بإذن من الحكومة العثمانية يوم الجمعة الموافق ٣١ كانون الثانى من عام ١٩١٣ . وقد جاء فى مستهل هذا المنهاج : الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية . ويتألف المنهاج من خمس عشرة مادة . جاء فى المادة السابعة منه : وتعين الحكومة المركزية مستشارين من الأجانب على شرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاث العربية أو التركية أو الفرنسية للدوائر الآتية فى مركز الولاية وهى الجندرية والمالية (وتلحق بها غرفة التجارة) والبوسطة والتلغراف والجرك .

وجاء فى المادة الرابعة عشرة : إن اللغة العربية تعتبر اللغة الرسمية فى جميع المعاملات داخل الولاية وتعتبر أيضاً لغة رسمية كاللغة التركية فى مجلس النواب والأعيان .

وفى المادة الخامسة عشرة : تخفض الخدمة العسكرية إلى سنتين وتقضى الخدمة أيام السلم فى الولاية . وتنزل قيمة البدل النقدى للنظامية إلى ثلاثين ليرة عثمانية وللدريف والاحتياط إلى عشرين ليرة .

لقد كانت المادة السابعة شديدة الوقع على رجال الدولة وذلك لما فيها من إفساح المجال لتدخل الأجانب فى شئون الدولة الداخلية ، أما ما جاء فى المادة الرابعة عشرة فهو نقطة حساسة طالما ارتجفت من ذكرها فرائص الاتحاديين ، لأنهم لا يريدون سماع كلمة اللغة العربية ، وهم الذين يعتقدون أنهم يحكمون البلاد العربية بالقوة والإدارة والأمة العربية تحكمهم بالثقافة ، لأن اللغة العربية هى لغة القرآن . أغضب

ما جاء في هذا المنهاج رموس الاتحاديين ، فأسرعت الحكومة إلى خلق الجمعية ، فأضربت المدن احتجاجاً على ذلك .

وفي البصرة تألفت جمعية البصرة الإصلاحية ، وهي لا تختلف في خططها وأهدافها عن أية جمعية عربية أخرى تأسست لمثل هذه الغايات في تلك الأيام .

كان لمطاردة الاتحاديين أحرار العرب ومقاومتهم لمناهجهم الإصلاحية أثر كبير في توسيع شقة الخلاف بين الأمتين وإلى اتجاه شباب العرب في سرية الأعمال وعلى ذلك تشكلت في تلك الفترة جمعيتان سريتان : الجمعية القحطانية وتمتاز بجرأة مؤسسيها وإقدامهم ووضوح مناهجهم واعترافهم بالواقع فقد أوضحوا في مناهجهم بأن تكون الدولة العلية ذات تاج مزدوج ، أى أن السلطان يضع على رأسه في الاستانة تاج المملكة العربية إضافة إلى تاجه التركي ، وتكون الدولة العربية من جميع المقاطعات العربية ، ولها مجلس نيابي خاص وإدارة محلية على غرار امبراطورية النمسا والمجر . لقد أدرك رجال هذه الجمعية أن الدعوة علناً إلى تحقيق هذا المنهج أمر مستحيل ، لأن ذلك مما ترتعد له فرائص غلاة الأتراك . فأتخذت سبيل السرية لها سبيلاً ووضعوا لأعضائها كلمة سر يتفاهمون بها كما أنها كانت تختار الأعضاء بدقة وحذر وكان زعيم هذه الجماعة الضابط المعروف عزيز على المصرى ، وكانت تسعى لكسب ضباط العرب في الجيش التركي . كان زمام هذه الجمعية قد أفلت من يد مؤسسيها ، لأن أحد الأعضاء من الذين كانوا لا يؤمنون بذلك أفشى سر الجمعية بخاف الأعضاء على أنفسهم فأهملوا الجمعية وتركوها تتلاشى من الوجود : ظلت هذه الفكرة تتردد في ذهن زعيمها عزيز على حتى صمم على تأليف جمعية أخرى على غرارها وبذلك تم تشكيل جمعية العهد واقتصر في أعضائها على الضباط العرب فقط ولما كان عدد العراقيين في الجيش التركي كبيراً

صارت كثرة الأعضاء لهم في هذه الجمعية وأسسوا لها فرعين في الموصل وبغداد . كانت هذه الجمعية شديدة في سريتها شدة جمعية « الفتاة العربية » وقد بذلت كلتا الجمعيتين جهوداً جبارة في سبيل استقلال البلاد العربية ولم تدر إحداهما بالأخرى وقد تلاقتا في دمشق عام ١٩١٥ ووجدتا جهودهما لإعداد الثورة .

أما الجمعية الثانية فهي جمعية « العربية الفتاة » أسسها في باريس عام ١٩١١ فريق من طلاب العرب الذين كانوا يدرسون هناك وكانوا كلهم من المسلمين وقد أخذ عملهم في هذه الجمعية سبيل الجد والسكران والحذر فكانوا لا يضمون إليهم أحداً إلا بعد أن يمر بتجربة طويلة يتبينون فيها صدق عهده . وكان منهاج هذه الجمعية تخليص العرب من الحكم التركي واستقلال البلاد العربية عن أى سلطة أجنبية . ولما أتموا دراستهم وعادوا إلى بلادهم انتقل مركزها إلى بيروت وقد لعبت دوراً مهماً في الحركة العربية وقد نمت هذه الجمعية نمواً سريعاً وبلغ مجموع أعضائها مائتين . وقد بلغ من حرصهم على العهد وكتبان السر أن حاول أحدهم الانتحار وفضل الثانى المشقة لشدة ما عذب جسمهما في سبيل الاعتراف . لقد كان هدف هذه الجمعيات التى تأسست يرمى إلى المطالب الآتية : (وهذه المطالب تختلف قوة وضعفاً حسب طبيعة الجمعية وطبيعة أعضائها)

١ — الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية .

٢ — اشتراك أكبر عدد من العرب في تدوير شؤون المملكة .

٣ — تسهيل قانون التجنيد الإجبارى « أى إبقاء الجنود العربية

في بلادهم أثناء السلم وتخفيض البديل النقدى » .

٤ — تحقيق اللامركزية .

وكانت هناك آراء مختلفة في توضيح العلاقة بين الدولة العثمانية وبين

رعاياها من العرب . فقد ساد رأى في إيجاد خلافة عربية تقوم مقام

الخلافة التركية ، وسملة هذا رأى العرب المسلمون المشقفون ثقافة إسلامية ويمثلهم السيد عبد الرحمن السكواكي .

ورأى يقول بإبقاء الخلافة في آل عثمان ويرمى إلى وحدة إسلامية شاملة ويمثلهم السيد جمال الدين الأفغانى .

ورأى متطرف يرمى إلى استقلال البلاد العربية وتخليصها من حكم الأتراك ومن أى سلطة أجنبية ورأى يقول بإبقاء البلاد العربية مرتبطة بالدولة العلية بنظام اللامركزية .

وهناك رأى متطرف آخر لعبت فيه الدسائس الأجنبية وهو القائل بوضع البلاد العربية تحت حماية دولة أجنبية وقد مهدت لهذا رأى دولتا فرنسا وبريطانيا^(١) .

المؤتمر العربى الأول

فى ٤ نيسان من عام ١٩١٣ وجه شباب جمعية « الفتاة العربية » كتاباً إلى اللجنة العليا لحزب اللامركزية فى القاهرة وإلى الجمعيات الأخرى العربية يدعونهم فيه إلى حضور مؤتمر غايته البحث فى التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن من الطوارئ وإصلاح أمور البلاد على أساس اللامركزية ، وأن تدور أبحاث المؤتمر حول الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال وحقوق العرب فى المملكة العثمانية وضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية والمهاجرة من سوريا وإليها . وفى ١٤ نيسان أجابت اللجنة العليا لحزب اللامركزية بالقبول .

فحضر مندوبون عنها وعن الجمعيات الأخرى ومندوبون عن سوريا والعراق والجاليات العربية القاطنة فى الولايات المتحدة وكان عدد الأعضاء الرسميين ٢٤ عضواً . وحضر عدد كبير من المستمعين العرب وفى اليوم

الآخرين فتحت أبواب المؤتمر لجميع الزائرين أما لماذا عقد المؤتمر في باريس فقد أوضحه السيد عبد الحميد الزهراوى بقوله : إن حوادث بيروت الأخيرة في اضطهاد الجمعية الإصلاحية وسجن فريق من أعضائها برهنت لنا على قدر الحرية التي يمكن أن يتمتع بها مؤتمر يعقد في سوريا وقد رأينا من جهة أخرى أن نسمع مطالبنا ونفهم رأينا أوروبا التي تزداد مصالحها أهمية في البلاد العثمانية يوماً بعد يوم ، وفضلنا باريس على غيرها من عواصم أوروبا لأن الجالية العربية فيها أكثر عدداً منها في سائر العواصم وانهقد المؤتمر في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سن جرمان في باريس يوم الأربعاء ١٨ حزيران عام ١٩١٣ ودام إلى اليوم الثالث والعشرين منه . وكانت مناقشاته في غاية من الصراحة والجرأة وهو في مقرراته لم يخرج على مبادئ حزب اللامركزية . وهذه أهم مقرراته :

- ١ — من المهم أن يكون مضموناً للعرب المتمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للدولة اشتراكاً فعلياً .
 - ٢ — يجب اعتبار اللغة العربية في مجلس النواب العثماني .
 - ٣ — أن تكون اللغة العربية رسمية في البلاد العربية .
 - ٤ — تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية إلا في الظروف التي تدعو إلى الاستثناء الأقصى .
 - ٥ — يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة لامركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها . وهذا أهم ما جاء في هذا المؤتمر .
- وأضعف ما جاء فيه حول اللائحة التي قدمتها ولاية بيروت التي تقوم على مبدئين أساسيين ، أحدهما توسيع سلطة المجالس العمومية وثانيهما تعيين مستشارين أجانب . وفي هذا المبدأ الأخير يتضح مبلغ تلاعب فرنسا في الأمر .

واختتمت القرارات بملحق جاء فيه : ستكون هذه القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة أى مرشح فى الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه .

ما كان المؤتمر شديداً فى مطالبه وما كان المؤتمر يريدون الانفصال عن جسم المملكة العثمانية وجل ما كانوا يريدونه إصلاح شامل يتناول الدولة العليا وفى ضمنها البلاد العربية التى ستظل مخصصة للسلطان فقد جاء فى خطاب عبد الحميد الزهراوى عند الافتتاح « إن العرب كانوا قد ألغوا الترك وهؤلاء قد ألغوا العرب وامتزج الفريقان امتزاجاً عظيماً مضى عليه أكثر من عشرة قرون ولسكن لما مزجت بينهم السياسة فرقت بينهم السياسة أيضاً ولم يبق من ذلك الامتزاج القديم إلا رابطة بين بعض العرب وبعض الترك وهذه الرابطة لا تزال تعد ثمينة عند الترك العثمانيين والعرب العثمانيين معا ، ولكنها مع عزتها فى نفوس الفريقين قد أصبحت مهددة بالسياسة أكثر مما كانت من قبل ومعلوم أن السياسة فى هذه المملكة بيد الترك ، ولذلك تعرفها أوربا بأنها حكومة الترك ، فلما رأى العرب ما وصلت إليه هذه المملكة بتلك السياسة التى مضى عليها العمل حتى الآن وكانوا حريصين على البقية الباقية من تلك الرابطة تدبوا إلى واجب عظيم كان الترك والعرب جميعا غير مهتمين به كما ينبغى ، وهو اشتراك الفريقين بسياسة البلاد ، فإنه قد تبين واضحاً أنه لا العرب انتفعوا ببرامتهم من ذنب إضاعة البلاد ، ولا الترك انتفعوا بتحملهم تبعه ذلك العبء الثقيل ، وبديهي أن هذا الاشتراك لا ينافى الإخاء بل الذى ينا فى هو عدم الاشتراك » .

وجاء فى خطاب اسكندر عمون : « توهم بعض أنصار النظام المركزى من إخواننا الأتراك أن الغرض من النهضة العربية الانفصال عن الدولة وهو أمر بعيد عن الصحة ، فإن الأمة العربية لا تريد إلا استبدال شكل

الحكم الفاسد (الذي كاد يودى بالدولة) بالحكم الذي يرجى منه وحده
الصالح والنجاح لنا ولهم وهو الحكم على قاعدة اللامركزية . ولو كانت
الهيئة الحاكمة اليوم من صميم قريش لكان موقفنا معها نفس موقفنا هذا .

أفزع المؤتمر جماعة الاتحاديين وروا فيه خيانة كبرى وجراًة من
العرب ، فحاولوا بطرق شتى إحباطه ، فطلبوا من فرنسا عدم السماح
بعقدته في باريس ، وعصبوا الجرائد والمجلات ورجال الدين وبعض الوجهاء
من البلاد العربية لاستنكاره واحتساب القائمين بأمره من الخارجين على
الخلافة والسلطان . فباءت محاولاتهم بالفشل ولم يروا بداً من مواجهة
الأمر الواقع فأرسلوا سكرتير جمعية الاتحاد والترقي إلى باريس للاتفاق
مع المؤتمرين الذين كان مؤتمرهم يمثل الأحزاب العربية والجمعيات فاتفق
معه على أمور لم تنفذ منها الدولة إلا اليسير مما دل على أن الإيفاد كان
لعبة أراد الاتحاديون أن يكسبوا الوقت من ورائها ويماطلوا في الأمر
ثم لا يجيبون رغبة . لقد صدق العرب كلام موفد الاتحاديين وأرسلوا
ثلاثة أعضاء منهم لتنفيذ الاتفاقية . واستقبل هؤلاء الأعضاء في الاستانة
استقبالا منقطع النظير ورحب الفريقان من عقلاء الأتراك والعرب
بهذه الظاهرة التي تؤدي إلى الإخاء والوفاق ، ثم تمخض ذلك كله عن
التصريح الآتي من قبل الحكومة الاتحادية :

١ — أن يعهد في إدارة الأوقاف الموقوفة على عمل الخير المحلي
بحسب شروط الوقف إلى مجالس الجماعات في الولايات وذلك بموجب
قانون جديد يلشر قريباً .

٢ — أن تكون الخدمة العسكرية في زمن السلم في دائرة التفتيش
إلا إذا رأت الحكومة لسبب ما حشد قسم من الجنود في جهة من الجهات
فترسل العسكر على الطريقة النسبية إلى الولايات البعيدة كالين والحجاز
وعسير ونجد .

٣ — أن يكون التدريس باللغة العربية في جميع مدارس الولايات التي تتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة وذلك لتوفير أسباب المدينية التي تحتاج إليها في الحال والاستقبال .

واقصر على ذلك في المدارس الرشدية والابتدائية أما في المدارس الإعدادية فيجب أن يستمر التدريس باللغة التركية . وقد تجاهل هذا القرار الرسمي من الدولة جميع ما بقي في قرارات مؤتمر باريس ولم يشر إليه . فكان صدمة قوية دهش لها العرب المشتغلون بالقضية العربية والواقفين على بواطن الأمور وكان خطوة موفقة عند البعض الآخر الذين كانوا يظنون بالاتحاديين خيراً ، فقد أقنعهم الاتحاديون بأن الدولة سائرة على تنفيذ خطتها فصلاً فصلاً ، إذ لم تتمكن من نشرها مرة واحدة في الصحف لأن ذلك يثير بعض العناصر الأخرى في الدولة للبطالة وتفتح أبواب لا مجال لسدها . وما زال الاتحاديون يفتلون بين الذروة والغارب حتى استطاعوا أن يكسبوا الوقت ويهيئوا أنفسهم لملاقاة العرب . فقد أبعدوا الفرق العربية وأبعدوا ما يقرب من أربعائة ضابط عربي من الأستانة إلى قلب الأناضول وتراقية وشبه جزيرة غليبولى وعلّموا أن الجو خلا لهم . وبذلك نام مشروع قرارات مؤتمر باريس نومة أبدية .

القبض على عزيز على المصري وتناجحه

وجد الاتحاديون في هذا الضابط الجريء قوة هائلة فأرادوا القضاء عليها والتخلص منها وظنوا أن الجو قد صفا لهم بإبعاد الضباط العرب عن الأستانة فدبروا له مكيدة ، وبينما كان خارجاً من الفندق تقدم إليه ثلاثة من رجال البوليس الملكي ودعوه إلى مركز البوليس ، فلما ذاع الخبر بين الناس وعلّموا بالقبض عليه قام إخوانه من العرب وقعدوا لهذا الأمر وتوجهوا إلى مركز البوليس يستفسرون فكان جواب المأمور

أنه لم يسجن وإنما طلب منه الإجابة على أمور معينة وسوف يطلق سراحه في الحال . ولما لم يتحقق ذلك قصد أحد ضباط العرب إلى الزهراوى وقال له أبلغ الحكومة التركية : « إن دماءنا نحن العرب يجب أن تحفظ للدفاع عن الوطن فلا تضطربنا إلى إراقتها في سبيل الأفراد » .

لم تجد محاولات العرب نفعا وقدم عزيز على بتهمة الخيانة لمناقضة أفكاره وآرائه لمصلحة الدولة العثمانية : ذلك أنه سعى لإنشاء دولة عربية مستقلة عن الدولة في ليبيا ، وأنه أخذ رشوة من الإيطاليين مقابل تسليم البلاد إليهم ، وأنه عدو لرجال الاتحاد وما إلى ذلك من التهم التي كان عزيز على بعيداً عنها . لقد عرف عزيز بقوة الشكيمة والرجولة تخرج من مدرسة الأركان بتفوق وعين في هيئة أركان حرب الجيش الثالث في مقدونيا وانتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي واشترك بالزحف على العاصمة في ثورة ١٩٠٨ ولما أدرك أن سياسة الاتحاديين ترمى إلى مقاومة الحركة العربية نفى يده منها . وأسس هو وزميله سليم الجزائري الجمعية القحطانية ، ثم جمعية العهد اللتين مر بنا ذكرهما . ولما نشب الخلاف بين الدولة واليمين أرسل عزيز على إلى إمام اليمن ونجح في إقناعه بتسوية الخلاف بينه وبين الباب العالي . وقد أحرز انتصار باهراً في ليبيا على الإيطاليين بالرغم من قلة ذات اليد وقلة العدة وكانت معركة ١٦ تموز التي انتصر فيها على الطليان من أكبر المعارك من الوجهة الحربية ووصفتها بعض صحف الغرب أنها تشبه معركة « كان » التي انتصر فيها هنبال على الرومان . شاع في الأوساط أن عزيز على قد حكم عليه بالإعدام بعد هذه الاتهامات والمحاكمة الخيالية ثم تأكد ذلك فقامت دنيا العرب وقعدت لهذا الحادث الجلل وتواردت الاحتجاجات من جميع أنحاء البلاد العربية وشكلت لجنة برياسة شيخ الأزهر للدفاع عن هذا الخطب وذهبت وفود عديدة

إلى اللورد كيتشنر في القاهرة . وتضافرت الجهود من جميع الجهات حتى خفف حكم الإعدام إلى الحبس الشديد والأعمال الشاقة لمدة خمسة عشر عاماً . كانت نتيجة هذا العمل أن تحركت مشاعر البلاد العربية وتقاربت آراؤهم في دفع الأخطار واستقر الرأي على المضي في السكفاح إلى النهاية فقد كانت قضية عزيز المصري قبساً أنار شعلة في النفوس ظلت تلهب حتى اندلع لهب الثورة العربية .

العرب والآتراك عند اندلاع لهيب الحرب العالمية

رضى العرب بهذا القليل الذي صدرت به الإرادة أثر الاتفاق الذي بعثه مؤتمر باريس واقنعوا بعود الاتحاديين ومدوا يد المعاونة إلى إخوانهم الآتراك في ظلال الهلال العثماني وبذلوا جهوداً جبارة قبل المؤتمر وبعده لإيجاد الطمأنينة والسكينة في قلوب العرب في كل مكان ، فقد استطاع عزيز على المصري القائد المعروف أن يقنع الإمام يحيى بتسوية كل خلاف بينه وبين الدولة ، واستطاع السيد طالب النقيب رئيس جمعية الإصلاح في البصرة أن يوفق بين رغبات الباب العالي وآل سعود في نجد . كما كان الإدريسي في العسير مستعداً لإجابة أى رغبة يريد لها السلطان . أما في العراق وسوريا فقد كانت الحركة والسكينة منوطتين بتوجيه الأحزاب السياسية والجمعيات وجل أعضائها موجودون في الاستئانة على صلة تامة بالدولة وبرجال الاتحاد وقد رضوا مبدئياً بهذه المنحة من الإصلاحات في البلاد العربية .

وفي الحجاز كان الهدوء شاملاً ولساطان الخليفة مستقراً وكاد يكون مطلقاً لولا وجود الشريف حسين بن علي حينذاك الذي أعاد لهذا المنصب مقامه الرفيع ، أنه بسط نفوذه على جميع القبائل المجاورة وتعداه إلى أبعد من ذلك ولما قويت شوكة الاتحاديين أرادوا أن يسلبوا الحجاز ميزاته

فأعلنوا أنه يجب خضوع الحجاز لنظام المملكة المركزية وأرسلوا إليه
والياً قوى الشكيمة فنفر شريف مكة من هذا التصرف واضطر الاتحاديون
أن يأمرؤا الوالى بمصانعة الشريف .

وفى كتاب المرحوم عبد الكريم الخليل إلى أحد أصدقائه بتاريخ
٦ أغسطس عام ١٩١٤ دليل واضح على نية حزب اللامركزية .
وبما جاء فيه :

« أيها العزيز : أنا على وشك السفر إلى سوريا لأن التداير التي اضطرت
حكومتنا السنية إلى اتخاذها درءاً لخطر الحرب العظمى تقضى على كل
عثمانى مخلص لدولته وأمته أن يبذل جهده في سبيل تنفيذها على أحسن
مايرام ، وستكون مهمتى في سوريا جمع كلمة الأمة على شد أزر الحكومة
والسعى لمنع كل مايحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية
وقد وعدتني الحكومة بأن تشد أزرى في هذه المهمة وتجيبنى إلى كل
المطالب العادلة التي أطلبها منها باسم الأمة العربية أو باسم الأفراد من
أبنائها ، فلنكن كلنا يداً واحدة لإنقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوربية
وإظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها لنتمكن من منع اعتداء الدول
الغربية علينا والخروج من هذه الأزمة الحرجة أرفع شأننا وأعلى مقاماً .
وجاء فيما كتب المرحوم سليم الجزايرى إلى أحد أصدقائه السياسيين
فى ١٥ يناير عام ١٩١٤ :

عزيزى لقد أخلصنا للاتحاديين فلا مجال للشك فى إخلاصهم لنا ،
نعم إن الاتفاق الذى أبرموه مع الزهراوى وعبد الكريم لايسعدنا
وليس فيه كل ما نحتاج إليه . . . ثم قال إن الحالة السياسية حرجة جداً
أيها العزيز فبقدر مايسى الاتحاديون إلينا يجب أن نحسن إليهم حرصاً على
كيان هذه الدولة المنكودة الحظ ، .

وكتب المرحوم مختار بيهم إلى أحد أصدقائه في مصر في ٢٦ أكتوبر عام ١٩١٤ قبل دخول الدولة بأيام معدودات ، أخى العزيز :
يخيل إلى أن الحرب واقعة لا محالة بين الدولة العلية ودول الحلفاء ،
والأمل عظيم جداً بأن تكون حرباً قومية ظافرة تعوض الدولة من
الخسارة التي منيت بها في السنوات الأخيرة وترفع شأن العثمانيين في نظر
العالم ، وقد ألفينا أحزابنا السياسية وتناسينا اختلافاتنا الداخلية لأن
المصلحة المشتركة تقضى بذلك وسوف يرى إخواننا الترك . ولا سيما
الاتحاديون من أعمالنا في هذه الحرب ما يظهر لهم إخلاصنا للعرش العثماني
وتفانينا في خدمة الوطن المشترك .

كانت موجة القومية التي عمت أنحاء أوروبا قد طغت على الشرق
فجرفت الأقوام التي كانت تتألف منها الامبراطورية العثمانية ، ومن
العجيب أن تصل هذه الروح ذروتها عند غلاة الاتحاديين الأتراك ،
لقد اعتنقوا هذه الفكرة عن إيمان منقطع النظير ، وصولجان الحكم
في أيديهم والدولة دولتهم وهم يرون بعيونهم كيف فرت أقوام البلقان
بالقوة والشدة من بين أيديهم ولم يبق معهم في القوة والأخوة إلا الأمة
العربية التي كانت تجتمع معهم في أمجاد التاريخ الإسلامي ووشيجة
العقيدة والتي كانت تؤمن بإطاعة الخليفة ، خليفة المسلمين . وقد كان يكون
من المنطق الواضح أن تتضح هذه الحقيقة عند الاتحاديين بيد أنهم
تركوها ولم يستغلوها ، وأخذوا يعملون على تحطيمها ، وقد لعبت اليهودية
العالمية وأوروبا المنتظرة إرث الرجل المريض الراقد على صفاف البسفور
دوراً هائلاً في إذكاء الحقد بين الأمتين فإن الأتراك كانوا يحكمون
الامبراطورية يعتقدون أن السلطة حق من حقوقهم وأن ما يقدمونه
للعرب في مشاركتهم ما هو إلا منحة ، ولذلك يغيظهم كل ما يطلبه العرب
من حق ، أما العرب فإنهم يعتقدون أن الدولة دولة العقيدة الإسلامية التي

نشرت فيها الأمتان وتدافعان عنها ، وأن أوروبا الشائرة على الرجل المريض
واليهودية العالمية الساخطة لم تسكدا كيدهما إلا من أجل تحطيم العقيدة
وإضعاف هذه القوة النابتة فى الشرق والحارسة على طرق المواصلات
بين الغرب والشرق المالكة لبقاع خصبة وأسواق عالمية ثرية .

وأن هذه الخصوبة وهذه الستراتيجية ماهى إلا فى بلاد العرب ؛ فمن
حق العرب أن يشتركوا اشتراكاً فعالياً فى الحكم والدفاع عن بلادهم خاصة
بعدما ظهر لهم من ضعف الدولة فى تنظيم شئوننا . هذه كانت نظرية
العرب وعلى هذه الأسس تقدموا فى مطالبتهم .

ملأت القومية رموس الاتحاديين فكبر عليهم أن يجدوا لهم منافساً
فى الدولة فوضعوا خططهم لتترك العرب وأنشئوا جمعية « ترك أوجاغى »
وهدفوا من وراء ذلك إلى بث روح القومية فى أبناء الترك وإرجاعهم
إلى أصولهم الأولى حتى ولو إلى الوثنية الطورانية ومن ثم التخلص من
العقيدة الإسلامية ومحوها وإدماج العناصر التى تتكون منها الإمبراطورية
فى هذه الطورانية المنتظرة وجعلوا لهذه الجمعية وظائف مقسمة على
جوانها الأربع وتنحصر فى العناية بالآداب التركية والرجوع إلى أصولها
مع التخلص من دخيل اللغة العربية وغيرها من اللغات وتأليف الكتب
القومية بهذه اللغة الجديدة ، ومقاومة كل كاتب تركى لا يرى هذا
الرأى ، والعمل على نشر هذه الفكرة بالتأليف وتدریس الناشئة التاريخ
الطورانى وإفهامهم أن الشعب التركى أعظم شعوب العالم اختارته القدرة
الالهية لسيادة الأمم فىجب أن تسود قوميته وتمحى القوميات الأخرى
وتندمج فيه ولتحقيق ذلك يجب أن تؤلف كتب الضرور القومى وتنشر
بين الشعوب التركية فى أنحاء العالم أينما وجدوا وربطهم جميعاً بعجلة
الاتحاديين وأن تعنى هذه الجمعية بتربية الناشئة وتقوية أجسامهم لإيجاد
جيل جديد صحيح الجسم والعقل . وأسسوا لهذه الجمعية النوادى وفرعوا

لها الفروع وأمدوها بالمال لتعفى بوضع كتب التاريخ والتراجم عن أسلافهم الأول أمثال هولاء كو وجنكيز خان وتيمورلنك وأوغوز وبدعوا في تنفيذ ذلك بأن غير الغلاة منهم أسماءهم العربية وتسموا بأسماء طورانية منتزعة من التاريخ القديم وحرموا على غير الترك دخولها . وزادوا على ذلك بأن أدخلوا هذا التاريخ في المدارس العالية . فسكانت هذه الحركة حركة استفزاز لبقية الشعوب والعناصر التي يظللها العلم العثماني وخاصة الأمة العربية التي تكون الأكثرية العظمى في هذه الدولة فقد كان الهجوم موجهاً ضد تاريخ الأمة الإسلامية وضد العقيدة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم . ما صير العرب على هذا التحدى بل أعلنوا سحقهم وشددوا أزر بعضهم بعضاً . وتراپطت الجمعيات وعقدت العزم على إصلاح الحال في أى وسيلة من الوسائل فإن بقاء الأمور معلقة مما يؤدي إلى هلاك الدولة التي يتكون منها العنصران الكبيران العربي والتركي . وكانت الحرب العظمى الأولى حداً فاصلاً بين هذا الاصطراع .

أعلنت الحرب ولم تكن الدولة العلية داخلية فيها وكان يكون من الخير لها أن تبقى محايدة وتشدد أزر العرب وتتفاهم معهم لتستفيد من غفلة أمم الغرب في حروبها الطاحنة فتقوى نفسها وتعيد شبابها وتملى إرادتها على الأمم . ولكن مطامع الاتحاديين وطيشهم أجبرا الدولة على خوض معارك هذه الحرب الضروس فلما أعلنت تركيا الحرب في جانب الألمان وقف العرب وقفهم المعروفة ونسوا جميع أخطاء الاتحاديين ووضعوا أيديهم بأيديهم فلانت شدة الاتحاديين ورعوا أنفسهم في حاجة إلى عون العرب فتمقربوا منهم واسدلوا على الماضي القريب ستاراً وعينوا للجيشوش العربية المرابطة في سوريا قائداً عربياً وجعلوا له أعواناً من ضباط الجيوش التي كان يقودها الضباط العرب وعاملوا السوريين

والسراقيين معاملة حسنة نخاض هؤلاء القواد الميادين بشجاعة وإخلاص وجند شباب العرب فاستشهدوا دفاعاً عن الوطن وحماية العقيدة وأبوا بلاء حسناً وألغوا جمعياتهم وأحزابهم السياسية وساهمت الأمة العربية بحضرها وريفها في تموين الجيوش في الميادين حتى قطع الناس لقمة العيش من أفواههم وسلموها للدولة طوعاً أو كرهاً فتولد عن ذلك غلاء فاحش واحتكار منكر بعث الجوع والهلاك وهام الناس على وجوههم يتخطفهم الموت من كل مكان وكان أشد هذا البلاء منصباً على البلاد السورية . هكذا مشيت الحال في بدء الحرب ولكن الاتحاديين لم يتركوها تسير كما هي بل عادو سيرتهم الأولى وأخذوا يسيثون الظن بالعرب وكان أول ما فعاهه أن نقلوا القائد العربي الفريق زكي باشا الحلبي الذي كان يقود الجيوش المرابطة في سوريا وعينهوه في منصب آخر بعيد عن ميادين القتال وأحلوا مكانه القائد التركي الاتحادي المعروف جمال باشا السفاح الذي كان وزيراً للحربية في الوزارة التركية وقد انتخب قائداً على الجيوش المرابطة في سوريا ليقود الحملة المنتظرة يفتح بها مصر . وصل جمال باشا إلى سوريا بعد سبعة أشهر من إعلان الحرب وقد خولته الدولة سلطة واسعة ، فانتهز الفرصة وأعلن الأحكام العرفية التي وضعته بموجب الحاكم بأمره في سوريا .

وقد أظهر ميلاً شديداً في حبه للعرب وتظاهره بالكره الشديد للاتحاديين . وكان يقال عنه إنه لا يميل إلى الطورانية كما كان زملاؤه من الاتحاديين بل كانت نزعته نزعة إسلامية ، ومشيت هذه الخدعة على الناس وتقرب بها من العرب واستمال الأحرار من رجال سوريا والعراق يستشيرهم وينفذ رغائبهم واطمأنوا إليه وشرع يقتل بين الذروة والغارب وكان أول ما فعله معهم أن حمل بعض المقربين إليه والذين اتخذهم وساطة التفاهم على إقناع بعض ضباط العرب بتسليم وظائف

عالية ملكية وعسكرية وارسال قسم منهم إلى الحدود لحاجة الدولة إليهم ، ثم ما لبث أن أغلق أبواب مدرسة صف الضباط وكان فيها مايزيد على خمسمائة طالب عربي وزاد في خدعته أن وقف مرة خطيباً في حفل تكريم لبعض رجال العرب فقال :

« يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحيوا مكارم أخلاق العرب ومجدهم منذ شروق الديانة الأحمدية ، أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التي وجدت قبل الإسلام عضواً على عربيتكم بالنواجذ ، ودافعوا عنها بكل قواكم اعملوا على ترقية العرب والعروبة وجددوا مدنييتكم ، قوموا قناتكم ، كونوا رجالاً كاملين » . ثم قال :

وإني أناشد الشبان العرب والترك قائلاً : « إن هذين الشعبين مقضى عليهما بالفناء في اللحظة التي يتخاذلون فيها ، فالنزاع والخلاف بين عمودي الإسلام لا بد أن يؤدي إلى سقوط ذلك الدين ويومئذ لا مفر من الوقوع تحت نير الاستعمار السلافي » .

أبعد هذه الخطبة شيء يشك فيه العرب ؟ ولسكن جمال لم يكف ينتهي من هذه الخطبة حتى أخذ ينفذ خططه خطة بعد خطة كأنما هذه الخطبة وأمثالها من المظاهر كانت بمثابة المخدر يخدر الطبيب فيه الجسم ليبدأ عمل المشروط . والحقيقة التي لا مرية فيها أن الجانبين كان يجد في سوء الظن عصمة ، وفي حسن الظن ورطة ، فإن الاتحاديين بعد أن أثاروا النعرات القومية وبعد أن وجد منهم العرب ما وجدوا صاروا لا يطمئنون إلى العرب ويعتقدون أن ما تركوه في نفوسهم ليس من السهل إزالته بوعود . وأما العرب فإنهم أصبحوا لا يعتقدون بأقوال الاتحاديين ووعودهم وخطبهم أياً كانت . إنهم يرون بلادهم أصبحت هدف المطامع وأنها ستكون ميدان حرب وفعلاً قد أخذ الحلفاء ينقصونها من أطرافها

وتركيا عاجزة عن الدفاع ، زد على ذلك الدعايات التي يقوم بها الحلفاء ،
والأيدي اليهودية الخفية التي تلعب بالحلفاء ، ووعود فرنسا للوارثة
في لبنان وإقبال هؤلاء على فرنسا وارتماؤهم في أحضانها للخلاص
من الحكم التركي بأى وجه كان ، كل ذلك زاد العلاقات توتراً
ووقف كل فريق ينظر إلى صاحبه نظر المستريب ، استطاع جمال باشا
إبعاد الضباط العرب إلى خارج بلادهم وأرسل فرقة من الجيش العربي
إلى جنناق قلعة فأضعف قوة المقاومة وخلا له الجو ، وهياً حملته التي
ساقها إلى قناة السويس ليجتليها في اليوم الثاني من شباط عام ١٩١٥ ،
ولكنه عاد إلى دمشق مغلوباً على أمره لقلة معداته ولعدم استعداده
فأبدى عندهما بأنه ما قام إلا للاستطلاع ، وترك وراءه بعض القوات
الصغيرة في سيناء لإشغال القوات البريطانية وأعلن أنه يعد العدة لتهيئة
حملة أخرى ، بيد أنه انصرف للانتقام من أحرار العرب ، فأمر باعتقالهم
وأدخلهم السجن ثم عقد لهم « محكمة عسكرية » في عالية وحوكموا محاكمة
خيالية فأدانت الفريق الأول وأصدر ديوان الحرب قراراً بإعدامهم ، وفتح
الناس عيونهم في بيروت صباح يوم ٢١ أغسطس من عام ١٩١٥ على جثث
أحد عشر حراً من أحرار العرب معالقة في أعواد المشانق . واستمر
جمال في إرهابه وبطشه فألحق بهؤلاء الزعماء الآخرين من خيرة رجال
العرب ، فقد أصدر ديوان الحرب في « عالية » من أعمال بيروت قراراً
بإعدام البقية الباقية ، وفتح الناس عيونهم في دمشق على سبع مشانق
وفي بيروت على أربع عشرة مشنقة في صبيحة يوم ٦ ميس من عام ١٩١٦
كان من بينهم عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوى والشيخ أحمد
طباره وجرجى الحداد وشكري العسلي ومحمد الحمصاني وأخوه محمود ،
وقد استقبل هؤلاء الأبطال هذه الأراجيح برباطة جأش ومما قاله أحدهم
وهو المرحوم سعيد عقل : « غفر الله لمن ظلمنى ، وأسأل ربى أن يكون

دمى الذى يراق سيباً فى المستقبل حياة بلادى وشرفاً لعائلى وأولادى .
وقال المرحوم توفيق البساط : « مرحباً بأرجوحة الشرف مرحباً
بأرجوحة الأبطال مرحباً بالعمد التى تستند إليها الأمم فى استقلالها
مرحباً بالموت فى سبيل الوطن الحر . ولم يكتف جمال بهذه المأساة بل نفذ
أحكامه بالنفى والإبعاد فأبعد « ٣٠٠ » أسيرة من (سوريا وفلسطين ولبنان)
نساء ورجالاً وأطفالاً أرسلوا إلى الأناضول بعد ما صادر أملاكهم
وأموالهم . ونثرهم فى ولايات الأناضول وقراه كما ينثر الحب فى العراء
لقد استند جمال باشا فى أحكامه هذه إلى ما وقع بيده كما يزعم المؤرخون
أو كما يزعم هو فى مذكراته من الوثائق فى القنصلية الفرنسية وفى هذه
الوثائق ما يدين هذه الأسر وأولئك الأبطال . وكان كل ما جاء فى إدانته
أن فريقاً من هؤلاء أعضاء فى حزب اللامركزية ، كما يزعم أنه ثبت لديه
أن فريقاً من الموارنة وغيرهم من بقية الطوائف المسيحية قدموا طلباً
إلى حكومة فرنسا بواسطة قنصلها يطلبون فيه احتلال فرنسا لسوريا ،
واستقلال ولاية بيروت استقلال تاماً تحت حماية فرنسا ووصايتها ،
وإدماج ولاية بيروت فى لبنان الذى يكون تحت سيادة فرنسا الفعلية ،
وسواء أصبح هذا أم لم يصبح فإن لفرنسا أطماع لم تفتأ تعمل على تحقيقها
فى سوريا وأن اليد اليهودية لم تفتأ تحرض على تحقيق هذه الأطماع .
وقد لعبت هذه الأيدي الخفية دوراً مهماً فى حملها هذا السفاح على التنكيل
بأحرار العرب . لقد كان أعضاء حزب اللامركزية يريدون إدارة خاصة
لكل إقليم من أقاليم الأمة العربية ، ولا يريدون انفصالاً عن الدولة
العثمانية أما المتطرفون من العرب فإنهم لا يرضون بالحرية بديلاً
ولا يخضعون لأى شرط يمس استقلال بلادهم .

أثرت حوادث إعدام الأحرار وترحيل الأسر إلى أواسط الأناضول
تأثيراً عميقاً فى العالم العربى والإسلامى فجزع لها شريف مكة وهو من

أكبر أمراء العرب نفوذاً لقد توسط لدى الاتحاديين بالعفو عنهم فأبوا وأصروا على إعدامهم وزاده جزعاً ما أثارته حقيقة وهيب باشا والى الحجاز من القلق في نفسه فقد ألقي في هذه الحقيقة خطأ تدل على إنزاله من الوجود . يضاف إلى ذلك كله وجود جمعيات عربية في بلاد الشام منظمة تنظيمها محكما ترقب الأحوال وتطورها . وقد ملأ نفوسها التشاؤم ، فإن الدلائل جميعها تدل على أن تركيا لا تستطيع الاحتفاظ بمركزها لأنها ليست في مكانة تقدرها على محافظة هذه الحدود المترامية وقد دخلت الحرب على غير استعداد .

لقد أراد الأتراك من شريف مكة أن يعلن الجهاد المقدس فهو سليل بيت النبوة والمسلمون ينظرون إليه نظر الاجلال فتباطأ الشريف وأبدى الأعذار وتمهل في الأمر ، يرقب الحالة حتى بلغ الأمر من سوء الظن بين الاتحاديين مبلغاً لا يمكن التغام بعده . والحقيقة التي لا غبار عليها أن أحرار العرب بدموا يشعرون بوجوب إيجاد دولة عربية في هذا الشرق الأوسط وأن الفرصة حانت لتحقيقها ، وأن المقومات كلها موجودة لتكوين دولة عربية ذات كيان مستقل تعيش بين دول الأرض . على ذلك كله تقدم الحسين إلى الأتراك في تحقيق بعض من هذه الرغبة مع البقاء ضمن الدولة العثمانية فقد أبرق إلى أنور باشا :

« إن خروج الدولة العلية منصوره من الحرب الحاضرة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها ولا سيما العرب والجانب الأهم من القتال في بلادهم ، ويلوح لي أن إرضاء الشعب العربي يتوقف على مداواة قلبه الذي جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه بتهم سياسية مختلفة والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية بالدواء الآتي : إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين ، إنالة سوريا ما تطلبه من نظام لامركزي ، جعل إمارة مكة وراثية في أولادى وإبقائها على حالتها الحاضرة ، فإذا قبلت

هذه المطالب ، فاني أتعهد بحشد القبائل العربية بقيادة أبنائي في ميدان العراق وميدان فلسطين ، وإذا لم تقبل فأرجوكم ألا تنتظروا مني شيئاً سوى الابتغال للحق جل وعلا أن يهب للدولة النصر والتوفيق .

فرد عليه أنور أنه لا يوافق على العفو عن المتهمين وسينال كل عقابه وطلب من الشريف إرسال المجاهدين إلى ميادين القتال . متجاهلاً كل مطلب . وبذلك ازداد التوتر وأصبح إصلاح ذات البين بين الأمتين صعباً .

العرب والحلفاء

أدركت بريطانيا الخطر الذي يهددها من جراء ما قام به الألمان في ضم الترك إليهم ، ووجدت في هذا الحلف خطراً مباشراً يهدد الهند فلم تجد بداً من التقرب إلى العرب والتودد إليهم ، فهم الذين يكادون يسيطرون على هذه الطريق . لقد بسطت حمايتها على مصر ، وبسطت نفوذها على جنوب الجزيرة وجزر الخليج وعقدت معاهدات بينها وبين شيوخ القبائل هناك ولكنها ما زالت تنظر إلى قلب الجزيرة فإن للأتراك أربع فرق موزعة بين الحجاز وعسير واليمن . فكيف تضمن السلامة من هذه الناحية لقد استطاعت أن تستميل ابن سعود إلى جانبها بعد أن تردد في الأمر ولم تخش من الأدريسي في عسير ولكنها كانت تخشى الحامية التركية المؤلفة من فرقتين في اليمن فكيف تستطيع شل حركتها ؟ لقد وجدت أن الاتصال بالشريف حسين خير ضامن لتحقيق مآربها وكانت قبلاً قد اتصلت بالأمير عبد الله أحد أنجاله . فقد صادف أن مر بمصر في سفره إلى الأستانة في مفتتح عام ١٩١٤ وكان فيها كتيشن المعتمد البريطاني فزاره المعتمد ورد عبد الله الزيارة إليه ، وقد أعلم الأمير المعتمد أن والده يسعى لاستقلال الإدارة في إمارته ، وأن التوتر بينه وبين الأتراك وصل حداً

قد يتندر بالثورة . وكان المستر ستورز السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطاني حاضراً . لفتت هذه المحادثة ملاحظة كوشنر فوجد فيها فائدة أهمها الحد من اندفاع الألمان والأتراك إلى فم الخليج العربي . ولما سكته أجاب الأمير إجابة مشبطة إذ قال له إن سياسة بريطانية التقليدية هي سياسة صداقة مع تركيا ولذلك فهو لا يتوقع أن تتدخل بريطانيا في حالة كهذه . ثم أتم الحديث بزيارة أخرى من المستر ستورز للأمير ، فأجاب ستورز بما يثبط العزم أيضاً وهكذا عاد عبد الله إلى الحجاز دون أن يعرف شيئاً عن نوايا بريطانيا . وفي خريف عام ١٩١٤ طلب من الأمير عبد الله أن يوضح موقف والده إذا أعلنت تركيا الجهاد المقدس ، فأخبر الجهة البريطانية أنه سوف يقف على الحياد ، عند ذلك أعلم بأن بريطانيا سوف تساعد على استقلال بلاده إذا اشترك معها في الحرب اشتراكاً فعلياً .

ومرت أشهر معدودات دون اتصال بين الجهة البريطانية والحجاز . ثم حدث أن اتصل المستر ستورز مع الشريف فتداول معه الأمر بحضور بعض الزعماء من العرب الذين أفلتوا من يد جمال بالشام فاتفقوا على صيغة العرض الذي يقدمه الجانب العربي فكتب الشريف حسين في ١٤ تموز عام ١٩١٥ الكتاب الأول إلى نائب جلالة ملك بريطانيا بمصر ما نصه :

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم :

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله : أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتي الودية واحتراماتي وأرجو أن تعملوا ما في وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة إليكم طيه ، المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية ، وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم

والحكومتكم ، أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا ،
لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة . ثم يجب ألا تتعبوا
أنفسكم بإرسال الطيارات أو رجال الحرب ، لإلقاء المنشير وإذاعة
الشائعات ، كما كنتم تفعلون من قبل ، لأن القضية قد قررت الآن . وإنى
لأرجو هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية لترسل الهدايا
المعروفة من الخنطة للأراضي المقدسة « مكة والمدينة » التي أوقف إرسالها
منذ العام الماضى . وأود أن ألفت نظركم إلى أن إرسال هدايا هذا العام
والعام الفات سيكون له أثر فعال فى توطيد مصالحنا المشتركة وأعتقد
أن هذا يكفى لإقناع رجل ذكى مثلكم ، أطال الله بقاءكم .

حاشية : أرجو ألا تزعموا أنفسكم بإرسال أى رسالة قبل أن تروا
نتائج أعمالنا هنا . خلا الجواب على مذكرتنا وما تتضمنه ، ونرجو أن
يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا كما نرجو أن تعطوه بطاقة منكم ليسهل
عليه الوصول إليكم عندما نجد حاجة لذلك والرسول موثوق به .

المذكرة الأولى

مكة فى ٢ رمضان سنة ١٣٣٣ هـ (١٤ تموز سنة ١٩١٥) .

لما كان العرب بأجمعهم — دون استثناء — قد قرروا فى الأعوام
الآخيرة أن يهيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة ، وأن يتسلموا مقاليد
الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم .

ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا
العظمى أن تساعد وتعاونهم للوصول إلى أمانهم المشروعة وهى الأمانى
المؤسسة على بقاء شرفهم وكرامتهم وحياتهم ، ولما كان من مصلحة العرب
أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا على أية حكومة أخرى بالنظر
لمركزهم الجغرافى ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا .
إنه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربى أنه من المناسب أن

يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبها أو ممثلها على الاقتراحات الأساسية الآتية :

أولاً : أن تعترف انكثرة باستقلال البلاد العربية من مرسين — أدنة حتى الخليج الفارسي شمالاً ، من بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي — من البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سينا غرباً .

على أن توافق انكثرة أيضاً على إعلان خليفة عربي على المسلمين .
ثانياً : تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكثرة في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

ثالثاً : تتعاون الحكومتان الإنكليزية والعربية في مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية ، وتأميناً لأفضلية انكثرة الاقتصادية فيها على أن يكون هذا التعاون في كل شيء في القوة العسكرية والبحرية والجوية .

رابعاً : إذا تعدى أحد الفريقين على بلاد ما ، ونشب بينه وبينها قتال وعراك فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد ، على أن هذا الفريق المعتمد إذا رغب في اشتراك الفريق الآخر معه ففي وسع الفريقين أن يجتسما معاً ، وأن يتفقا على الشروط .

خامساً : مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاق بعام .

هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق والحمد لله على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو إيجاباً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح .

وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق جواباً فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء .

وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا إذا لم يصل الجواب أحراراً في القول والعمل من كل التصريحات والوعود السابقة التي قدمناها بواسطة علي أفندي .

(٢)

من السير هنرى ماك ماهون إلى الشريف حسين

مصر في ١٩ شوال ١٣٢٣ هـ (٣٠ أغسطس سنة ١٩١٥ م) .

إلى الحسين بن الحسين بن السيد الشريف بن الشريف بن السيد الجليل المبهجل ، دولة الشريف حسين باشا ، سيد الجميع أمير مكة المكرمة ، قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين ، عمت بركته الناس أجمعين .

بعد رفع رسوم وافر التحيات العطرة والتسليمات القلبية الخاصة من كل شائبة أعرض ، أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص والإحساسات نحو انكلترة ، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن تعلم سيادتكم ورجالكم برأى واحد وعقيدة واحدة وهى أن مصالح العرب هى مصالح انكلترة ومصالح انكلترة هى مصالح العرب ، وأود بهذه المناسبة أن أؤكد لكم ما قاله اللورد كيتشنر فى الرسالة التى وصلتكم بواسطة علي أفندي ، وهى الرسالة التى أوضح لكم فيها بصراحة رغبتنا فى استقلال البلاد العربية وسكانها وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربياً عريق العروبة .

أما ما يتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا فى مثل هذه التفاصيل — والوقت قصير والحرب قائمة — سابق لأوانه ، وخاصة أن تركيا

لا تزال تحتل قسماً كبيراً من الأراضي التي أشرتم إليها في اقتراحكم احتمالاً تاماً ، ثم يجب أن أضيف إلى ذلك ، أنني علمت بدهشة وألم أن بعض العرب في هذه الأقسام لا يرغبون في مساعدتنا ، بل يقدمون مساعدتهم الفعلية بالسلاح الألمان والآتراك ، أعني « للهدامين الجدد ، والظالمين القدماء » . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإننا على استعداد لأن نرسل لفخامتكم المنح المطلوبة للأراضي المقدسة حالما تعلموننا كيف وأين ترغبون تسليها ، ونحن نهى الأسباب اللازمة ليتمكن رسولاكم من الوصول إلينا بكل أمان وسلام .

وتفضلوا بقبول احترامنا . التوقيع : ا . هـ ماك ماهون

(٣)

من الشريف حسين إلى السير هنري ماك ماهون .

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٩ شوال ١٣٣٣ ، (٩ أيلول سنة ١٩١٥) .

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلبه الله .

بمزيد السرور والغبطة تلقيت كتابكم المورخ في ١٩ شوال وطالعت به بكل احترام واعتبار ، رغم شعوري بغموضه وبرودته ، فيما يتعلق بنقطتنا الأساسية ، أعني نقطة الحدود .

وأرى من الضروري أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشؤون وفي أي شكل ، وفي أية ظروف ويجب أن أؤكد لكم أيضاً أن مصالح اتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التي ذكرتها لكم ، ويعذرني نخامة المندوب إذا قلت بصراحة إن البرودة والتردد اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود وقوله إن البحث في هذه الشؤون إنما هو إضاعة للوقت ، وأن

تلك الأراضى لا تزال بيد الحكومة التى تحكمها ، ويعذرني فخامته إذا قلت إن هذا كله يدل على عدم الرضا أو على النفور أو على شيء من هذا القبيل .

فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل يتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب بل هى مطالب شعب يعتقد أن حياته فى هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد ، وهذا ما جعل الشعب يعتقد أنه من الضرورى البحث فى هذه النقطة قبل كل شيء مع الدولة التى يشقون بها كل الثقة ويعلقون عليها كل الآمال وهى بريطانيا العظمى . وإذا أجمع هؤلاء على ذلك ، فإنما يجمعون على سبيل الصالح المشترك ، وهم يرون أنه من الضرورى جداً أن تنضم الأراضى المجزأة ليعرفوا على أى أساس يؤسسون حياتهم ، كيلا تعارضهم إنكثرة أو إحدى حليفتها فى هذا الموضوع مما يؤدى إلى نتيجة معاكسة الأمر الذى حرمه الله وفوق هذا فإن العرب لم يطلبوا — فى تلك الحدود — مناطق يقطنها شعب أجنبي ، بل هى عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها .

أما الخلافة فإن الله يرضى عنها ، ويسر الناس بها .
وأنا على ثقة يا صاحب الفخامة أنكم لا تشكون قط بأنى لست أنا شخصياً الذى يطلب تلك الحدود التى يقطنها عرب مثلنا ، بل هى مقترحات شعب بأسره ، يعتقد أنها ضرورة لتأمين حياته الاقتصادية .

أو ليس هذا صحيحاً يا فخامة الوزير ؟ وبالاختصار فإننا ثابتون فى إخلاصنا ، نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا أم غاضبين . أما ما يتعلق بقولكم بأن قسماً من شعبنا لا يزال يبذل جهده فى سبيل تأمين مصالح الأتراك . فلا أظن أن هذا يبرر البرودة والتردد اللذين شعرت بهما فى كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود ،

الموضوع الذى لا أعتقد أن رجلاً مثلكم ثاقب الرأى ينكر أنه ضرورى
لحياتنا الأدبية والمادية وأنا حتى الساعة لا أزال أنفذ ما تأمر به الديانة
الإسلامية فى كل عمل أقوم به ، وأراه مفيداً وصالحاً لبقية المملكة ،
وإنى سأستمر فى هذا الرأى إلى أن يأمر الله بغير ذلك . وأود هنا يا صاحب
الفخامة أن أؤكد لكم بصراحة أن الشعب ومن جملة هؤلاء الذين
تقولون إنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا ينتظر بفارغ الصبر نتائج
هذه المفاوضات على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود وقضية المحافظة
على ديانتهم وحمايتهم من كل أذى وخطر . وكل ما تجده الحكومة
البريطانية موافقاً لسياستها فى هذا الموضوع فما عليها إلا أن تعلن به ،
وأن تدلنا على الطريق التى يجب أن نسلكها . ولذلك نرى من واجبنا
أن نؤكد لكم أننا سنطالب إليكم فى أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه
الآن لفرنسا فى بيروت وسواحلها ، ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت
أنظركم إلى أن خطتنا هى آمن على مصالح انكلترة من خطة انكلترة على
مصالحنا ، ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران فى المستقبل سيقلق أفكارنا
كما يقلق أفكارها .

وفوق هذا فإن الشعب البيروتى لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء
وقد يضطربنا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب
جديدة تفوق فى صعوبتها المتاعب الحاضرة ، وعلى هذا لا يمكن السماح
لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة ، وأنا أصرح بهذا
رغم أنى أعتقد وأؤمن بالتعهدات التى قطعتموها فى كتابكم .

ويستطيع معالى الوزير وحكومته أن يشق كل الثقة بأننا لا نزال عند
قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التى عرفها مستر ستورز منذ عامين . ونحن
ننتظر اليوم الفرصة السانحة التى تناسب موقفنا وخاصة فيما يتعلق بالحركة

التي أضحت قريبة ، والتي يدفعها إلينا القدر بسرعة ووضوح لتسكون حجة — نحن والذين يرون رأينا — في العمل ضد تركيا دون أن نتعرض للوم والنقد .

وأعتقد أن قولكم : « بأن بريطانيا لا تمسكم ولا تدفعكم للاسراع في حركتكم مخفة أن يؤدي هذا التسرع إلى تصديع نجاحكم ، لا يحتاج إلى إيضاح إلا فيما يتعلق بالأسلحة والذخائر عند الحاجة . أعتقد أن في هذا كفاية .

(٤)

من السير هنري ماك ماهون إلى الشريف حسين .

القاهرة في ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩١٥ (١٥ ذى الحجة سنة ١٣٣٣)
إلى الشريف مكة مع الألقاب .

تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٩ شوال بكثير من الفبطة والسرور ، وكان للمبارات الودية المخلصة التي وردت فيه أكبر تأثير في نفسي ، وإنه يؤسفني أنكم لاحظتم في كتابي الأخير ، وحديثي عن قضية الحدود شيئاً من البرودة والتردد ، مع أنني لم أكن أقصد ذلك بل كنت أود أن أقول بأن الوقت لم يحن بعد للبحث فيها بحثاً منتجاً ، هذا كل ما أردت قوله ، وقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعلقون أهمية كبرى على قضية الحدود وأنكم تعتبرونها من المسائل الحيوية ، فأرسلت مضمون كتابكم إلى الحكومة البريطانية وأنه ليسرني أن أرسل إليكم البيانات التالية ، التي أثق كل الثقة أنها تفوز برضائكم .

إن مرسين واسكندرونة وبعض الأقسام السورية الواقعة في غربي دمشق وحمص وحماء وحلب لا يمكن أن يقال عنها إنها عربية محضة ، فيجب أن تستثنى من الحدود التي ذكرتموها ، ونحن على استعداد للوفاقية على تلك الحدود على أساس هذه التبديلات على ألا تنقص شيئاً من

اتفاقائنا مع زعماء العرب أما الأراضي التي تستطيع إنكثرة العمل فيها
بملء الحرية ودون أن توقع ضرراً بحليفها فرنسا ، فإن لى السلطة التامة
باسم حكومة صاحب الجلالة أن أعطيكم التأمينات التالية جواباً
على كتابكم :

١ — إن إنكثرة مستعدة على أساس تلك التعديلات أن تعترف
باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم فى الحدود التي اقترحها شريف مكة .
٢ — تحمى بريطانيا الأراضي المقدسة من كل اعتداء خارجى
وتعترف بوحدتها .

٣ — تقدم بريطانيا للعرب عند الحاجة كل مساعدة أو نصيحة تلزم
وتعاونهم فى تشكيل أفضل شكل من أشكال الحكومة فى مختلف
البلاد العربية .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن العرب يوافقون على استشارة
ومعونة وإدارة بريطانيا العظمى وحدها ويرضون بأن يكون جميع
الموظفين الذين يحتاجون إليهم بتنظيم دوائر عملهم من البعثة الانكليزية .
أما ما يتعلق بولايتى البصرة وبغداد فإن العرب يعرفون أن مركز
إنكثرة ومصالحها فيها يتطلب شكلاً إدارياً خاصاً ومراقبة خاصة للحفاظ
على تلك الأنحاء من الاعتداءات الخارجية ، وتأمين راحة واطمئنان
السكان وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها .

وإنى لعلى ثقة بأن هذا التصريح يجعلكم أبعد ما تكونون عن الشك
فى عطف بريطانيا على أمانى أصدقائها ، التقليديين ، العرب ، ويؤدى حتماً
إلى التحالف والعمل على طرد الأتراك من البلاد العربية وإنقاذ العرب
من النير التركى الذى كان وما يزال يضغط على أعناقهم منذ أعوام .

لقد قصرت كتابى هذا على الشؤون العظيمة الأهمية ، فإذا كان لديكم

شئون أخرى ترغبون في المذاكرة بشأنها ولم أشر لها في كتابي هذا فإن
في وسعنا البحث فيها في فرصة مناسبة في المستقبل .

وقد تلقيت بالسرور والرضا نبأ وصول المحمل الشريف والهدايا
المرسلة بكل دقة ونظام بفضل التعليمات والإرشادات القيمة التي
قدمتموها وذلك بالرغم من الأخطار والمصاعب التي خلفتها الحرب
الحاضرة . وأرجو الله أن يعيد السلام والأمان والحرية سريعاً إلى جميع
الشعوب . لقد أرسلت إليكم هذا الكتاب بواسطة رسوالم النشيط
الأمين الشيخ محمد بن عارف عريفان وهو سيطلبكم على بعض الشؤون
التي لم أذكرها في كتابي .

(٥)

من الشريف حسين إلى السير هنري ماك ماھون

بسم الله الرحمن الرحيم .

(مكة في ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ — ٥ تشرين الثاني سنة ١٩١٥)

لقد تلقيت بسرور كتابكم الكريم المؤرخ في ١٥ ذى الحجة وها أنا
أجيبكم عليه بما يلي :

١ — رغبة في تسهيل الاتفاق وخدمة الإسلام واجتناب كل ما من
شأنه تعكير صفو المسلمين واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها
الحجيدة ، فإننا نتنازل عن إصرارنا في ضم مرسين وأدنة إلى المملكة العربية .
أما قضية حلب وبيروت وسواحلها فهي عربية صرفاً ، وليس هناك
فرق بين المسلم العربي والمسيحي العربي فكلاهما من نسل واحد . ومفسر
نحن المسلمين على خطة سيدنا عمر بن الخطاب وسواه من الخلفاء الراشدين
الذين فرضوا على المسلمين — بموجب الديانة الإسلامية — أن يعاملوا
المسيحيين كما يعاملون أنفسهم ، وقد قال سيدنا عمر في حديث له عن

المسيحيين « بأن هؤلاء ما لنا من حقوق وواجبات » وعلى هذا فإن المسيحيين سيستمتعون بما تتمتع به من حقوق بما يتفق ومصلحة الشعب أجمع

٢ — لما كان العراق قسماً من المملكة العربية وكان مركز حكوماتها في عهد علي بن أبي طالب والخلفاء الذين تبعوه ، ولما كان هذا القطر مهداً لحضارة العرب ومدنيتهم وفيه أنشئت أبنيتهم الأولى وفيه عظمت قوتهم فإن العرب القرييين والبعيدين ينظرون إلى هذا القطر نظرة اعتبار خاصة ولا يستطيعون أن ينسوا بسهولة تقاليدهم وذكرياتهم ، ولذلك أعتقد أنه ليس في المستطاع إقناع الشعب العربي بالتنازل عن هذا القطر ، إنما رغبة منا في تسهيل الاتفاق واعتماداً على عهودكم في المادة الخامسة من كتابكم ، وحفظاً لمصالحنا المشتركة في هذا القطر ، فقد نوافق أن نترك الآن لمدة قصيرة الأراضي التي تحتلها الجيوش الانكليزية ، تحت إدارة انكثرة لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة واحترام اتفاقكم مع شيوخها .

٣ — إذا كنتم ترغبون في الإسراع بالثورة فإننا نرى كثيراً من المخاوف . وأول ما نخشاه أن يقوم مسلمو الطرف الآخر ويلومونا على حركتنا ونثورتنا على حكومة إسلامية . ثم هناك أمراً آخر نخشاه ، وهو أننا إذا وقفنا في وجه الأتراك ووراءهم جميع القوى الألمانية ، فإننا لا نستطيع أن نعرف إذا كان من الممكن أن تضعف إحدى الدول المحالفة وتطلب الصلح فهل تتركنا انكثرة وحدنا أمام الأتراك أم لا ؟ فإذا تم هذا وبقي العرب وحيدين أمام الأتراك فماذا نصنع ؟

٤ — إن الأتراك لا يكادون يروننا وحيدين حتى يعمدوا إلى الانتقام منا فيعذبوا بحقوقنا المادية والمعنوية ، ويعتدوا على كرامتنا وشرفنا بمساعدة حليفهم ألمانيا ، هذه أمور يجب النظر إليها منذ الآن بعين الاعتبار لأن لها علاقة خاصة بقضيتنا .

٥ — عندما يعرف العرب أن حكومة بريطانيا العظمى هي حليفهم لا تدعهم وحدهم عند انتهاء الحرب وعقد معاهدة الصلح ، وتمد يدها دوماً لمساعدتهم والدفاع عنهم عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة لا يشوبها شيء من الخوف والحذر .

٦ — إن كتابنا المؤرخ ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ يفتينا على ما أعتقد عن إعادة رأينا فيما يتعلق بالمادتين الثالثة والرابعة من كتابكم الأخير بشأن الإدارة والاستشارة الحكومية والموظفين على ألا يكون (كما صرحت) — تدخل في الشؤون الداخلية .

٧ — إنا ننتظر وصول جوابكم النهائي الصريح على هذه الاقتراحات بأسرع ما يمكن فقد أبدينا كل تساهل في الموضوع في سبيل الوصول إلى اتفاق يرضى الفريقين .

ونحن نعرف أن نصيبنا من هذه الحرب إما نجاح يؤمن للعرب حياة تتفق وتاريخهم القديم ، أو انقراض في سبيل الوصول إلى أمانهم ومطالبهم ولو لم أكن أعرف أن العرب مستعدون للتضحية بأرواحهم في سبيل الوصول إلى أمانهم لسكنت أفضل أن أصعد إلى رأس جبل وأنزوى فيه ولكن العرب بأسرهم يصرون علىّ بأن أقود حركتهم حتى النهاية وليحفظكم الله وينصركم .

(٦)

من السر ماك ماهون إلى الشريف حسنين

القاهرة في ١٣ كانون الأول سنة ١٩١٥ (٩ صفر سنة ١٣٣٤)
وبعد فتمد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ وسرني ما رأيته فيه من قبولكم لإخراج ولايتي مرسين وأدنة من حدود البلاد العربية ، وقد تلقيت أيضاً بمزيد السرور والرضا تأكيدكم أن

العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب « رضى الله عنه » وغيره من الخلفاء الأولين : التعاليم التى تضمن حقوق الأديان وامتيازاتها على السواء ، هذا وفى قولكم أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهدتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبعاً أن هذا يشمل البلاد الداخلة فى حدود المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء .

أما بشأن ولايتى حلب وبيروت لحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة ، ولكن لما كانت مصالح حليفنا فرنسا داخلة فيها فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق وستخبركم بهذا الشأن مرة أخرى فى الوقت المناسب . إن حكومة بريطانيا مستعدة لأن تعطى كل الضمانات والمساعدات التى فى وسعها إلى المملكة العربية ولكن مصالحها فى ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة ، وأما نستصوب تماماً رغبتكم فى اتخاذ الحذر ، ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم ، ولكننا فى الوقت نفسه نرى من الضروري جداً أن تبذلوا كل مجهوداتكم فى جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة ، وأن تحشورهم على ألا يمدوا يد المساعدة لأعدائنا بأى وجه كان ، فإنه على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التى يمكن للعرب أن يتخذوها لإسعاف غرضنا عندما يحىء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته ، وفى هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا العظمى لا تنوى إبرام أى صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك . هذا وعربونا على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم فى مجهوداتكم فى غايتنا المشتركة فإنى مرسل مع رسولكم الأمين مبلغ عشرين ألف جنيه وأقدم فى الختام عاطر التحيات القلبية .

(٧)

من الشريف حسين إلى السير هنرى مالك ماهون
بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٥ صفر سنة ١٣٣٤ (أول كانون الثاني ١٩١٦)
تلقينا كتابيكم المؤرخين في ٩ صفر فسر في ما جاء فيهما ، وذهب ما كان
يقلقني وأظن أن نخامتكم قد أدركتم بعد وصول الشريف محمد فاروق
واجتماعه إليكم بأن أعمالنا حتى الآن لم تكن لغايات وميول شخصية ،
بل إن كل شيء كان بنتيجة مطالب ورغائب شعبنا ، وإننا لسنا سوى
ناقلين ومنفذين لرغائب الشعب وإلحاحه .
وهذه الحقائق هي دوماً في فكري أهتم لها كل الاهتمام وأرجو أن
تجد في أنفسكم مكانها من الانتباه والاعتبار .

إن ما يتعلق بقضية العراق وقضية التعويض الذي اقترحنه لقاء
احتلاله فإنني في رغبة في تقوية ثقة بريطانيا بنوايانا في القول والعمل
أدع أمر تقدير المبلغ إلى حكمتها وعدالتها .

أما ما يتعلق بالأقسام الشمالية ومرافئها فقد أبدينا لكم في كتابنا
السابق أقصى ما يمكن أن نوافق عليه من تعديلات ونحن لم نتساهل
هذا التساهل إلا لتحقيق الرغائب التي يريد الله العلي الأعلى أن تتحقق ،
وهذا الشعور هو الذي حدا بنا لأن نتجنب كل ما من شأنه أن يسيء إلى
تحالف انكلترا وفرنسا والاتفاق المعقود بينهما خلال هذه الحرب
ومصائبها .

(٨)

من السير هنري مالك ماهون إلى الشريف حسين .

القاهرة في ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٣٤ (٣٠ كانون الثاني سنة ١٩١٦)
تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ في ٢٥ صفر بواسطة رسولكم الموثوق
به واطلعنا منه على رسالتكم الشفوية وإننا لنقدر حق التقدير الدوافع
التي تقودكم في هذه القضية الهامة ، ونعرف جيداً أنكم تعملون في صالح
العرب وأنكم لا ترمون إلى شيء في عملكم غير صالحهم وحريتهم .
وقد عنيت عناية خاصة بملاحظتكم بشأن ولاية بغداد ، وسلمبحث
هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عندما تتم هزيمة الأعداء ونصل
إلى التسويات السلمية .

أما ما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم
في تجنب كل ما من شأنه الإساءة إلى تحالف انكلترا وفرنسا وسررت
جداً بإبداء مثل هذه الرغبة .

وأظنكم تعرفون جيداً أننا مقررون قراراً نهائياً ألا نسمح بأى
تدخل (مهما قل شأنه) في اتفاقنا المشترك في إيصال هذه الحرب إلى
الفوز ، ثم متى انتهت الحرب ، فإن صداقة فرنسا وانكلترا ستقوى
وتشتد وهى اللتان بذلتا الدماء الإنكليزية والفرنسية جنباً إلى جنب
في سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات . والآن وقد قررت البلاد
العربية أن تشترك معنا في الدفاع عن الحقوق والحريات وتعمل معنا
في سبيل هذه القضية الهامة فإننا لنرجو الله أن تكون نتيجة هذه
الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد صداقة دائمة تعود على الجميع
بالسرور والغبطة . وقد سررنا جداً للحركة التي تقومون بها لإقناع
الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا
ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب لاتخاذ تدابير أوسع
من هذه .

إعلان الثورة ومكانة العرب

في انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى

لم يكن إعلان الثورة العربية مفاجأة للعالم ، فإن جميع المقدمات التي مرت بنا تؤدي إلى هذه النتيجة ، فقد استيقظ العرب باليقظة الكبرى التي عمت أرجاء العالم ، وفتحوا عيونهم بين يدي الخلافة التي كانت تحكم أقواماً وشعوباً متنوعة ، ورأوا ما تفعله هذه الأقوام ، ثم ما يقوم به العنصر الحاكم في ثورة هائلة من النعرة القومية الطورانية والنية المبيتة في تترك بقية العناصر المنضمة إلى الدولة بالرغم من ضعف سلطان الخلافة وتضعضع مركزها في أقسامها الغربية والشرقية ، وفي العرب رجال لهم في جيش الدولة مكانة وفي إدارتها شأن وعنصرهم هو العنصر الغالب ، والثقافة السائدة هي الثقافة العربية الإسلامية والقرآن الذي تستظل بظلاله الخلافة الإسلامية ينطق بلسان عربي مبين . فلم يرضوا بهذه المسكنة ؟ ولم يصبروا حتى تستتركهم جمعية الاتحاد والترقي ، لقد أظهروا مقدرة فائقة في جميع الميادين الحربية والإدارية وساهم رجالهم في قمع الظلم والاستبداد وإعادة الدستور ، فقد زحف القائد العربي محمود شوكت باشا بالجيش على العاصمة وأرغم الخليفة على التنازل وعلى إعادة الدستور . أفلا يمكن للعرب إذن أن يحددوا مركزهم في هذه الدولة ؟ كل أولئك أهابت بالعرب ، وكانت الفرصة سانحة في هذه الحرب العالمية فتقدموا للدولة يستوضحونها ويطلبون تحديد مركزهم فأغضب ذلك الاتحاديين وفعل جمال باشا في أحرارهم ما فعل . ما كان للعرب بد من خوض المعركة ، ولكن كيف يكون ذلك وهناك معسكران متطاحنان : تركيا والألمان من جهة وانكلترا وفرنسا وبقية الحلفاء من جهة أخرى ، لم ير العرب بداً من الانحياز إلى

جانب الحلفاء بعد أن ألقى الشريف حسين الحجة على الأتراك بمطالبة العفو عن الأحرار قبل أن يشنقهم جهال باشا ثم بمطالبة تحديد مكانة الأمة العربية ضمن الخلافة من حيث إنشاء إدارة لا مركزية فرفض الأتراك ذلك كله . وضع الشريف مع جمعيتي الفتاة والعهد العربيين مشروعاً على أساسه بدأ الاتصال بالغرب ودخات المناوضة بطريق المراسلة بعد أن كانت المواجهة قد مهدت لها من قبل ، وتحدثت صلات العرب بالحلفاء بالوثائق المتقدمة التي جرت على أساس رسائل بين الشريف وبين ماك ماهون . وكانت الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم السبت ٩ شعبان ١٣٣٤ الموافق ١٠ حزيران لعام ١٩١٦ حداً فاصلاً بين العرب والترك في خلافة آل عثمان ، حيث انطلقت نيران العرب على ثكنات الجيش العثماني مؤذنة بإعلان الاستقلال والثورة وعزز الشريف هذه الوثيقة بمنشور على العالم الإسلامي والعربي جاء فيه : إن الاتحاديين خرجوا على العهد الأخوي بين الشعبين ، رغم المعونة الصادقة التي بذلها العرب في ظل الخلافة ، وخرجوا على الشريعة فبدلوا الأحكام ، وشنقوا أحرار العرب جماعات وفرادى ، وشردوا أسرهم ونفوها من أرضها ، وصادروا الأموال ، ولقد نصحننا فلم ينفع النصيح ، وقد وفقنا الله لأخذ الاستقلال فضرربنا على أيدي الاتحاديين وانفصلت بلادنا عن المملكة العثمانية انفصالا تاماً وأعلننا استقلالاً لا تشوبه شائبة مداخله أجنبية ولا تحكم خارجي جاعلين الغاية نصرة دين الإسلام وإعلان شأن المسلمين مستندين في كل أعمالنا على أساس أحكام الشرع الشريف ولن يكون لنا مرجع سواه في جميع الأحكام وأصول القضاء .

لقد استطاع جيش الثورة أن يستولى على مدن الحجاز الكبرى في أقل من ثلاثة أشهر عدا المدينة المنورة فإن الحامية التركية بقيت محاصرة فيه إلى ما بعد انتهاء الحرب . وصل إلى الحجاز ضباط العرب

الذين أفلتوا من الجيش العثماني ونظموا جيوشها على أسس نظامية ووصلتهم بعض العدة من الحلفاء . وقد ارتاب الحلفاء في أمر الثورة إما خوفاً منها أن تتغلب عليهم أو أنهم كانوا لا يريدون الاعتراف بها واسكنهم أذعنوا بعد أن أدركوا أهميتها . وأنها هي التي قيدت هجوم الأتراك على القنّاة وقد اعترف بذلك جمال باشا نفسه ، زد على ذلك فإنها هي التي حالت دون نجاح الحملة التركية الألمانية إلى جنوب الجزيرة ولو نجحت هذه الحملة لأقفلت البحر الأحمر ولأفسحت المجال لنشاط الألمان ، أما من الوجهة الاستراتيجية فقد أصبحت هذه المنطقة الموالية للحلفاء بعد انضمام ابن سعود إليهم والتي تمتد من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي خير ضمان لسلامة ملاحظتهم ، وكتب جمال باشا في مذكراته يقول : لو لا ثورة العرب ما جرأت كتيبة انكليزية في عام كامل أن تطأ ضفة القنّاة الشرقية .

تقدمت الجيوش العربية تفتح في أرض الحجاز حتى وصلت العقبة في شهر تموز عام ١٩١٧ فاتخذتها نقطة ارتكاز ، وأخذت بعد ذلك تتقدم وتزيل حاميات الأتراك وتصطدم بقواتهم حتى وصلت إلى دمشق فدخلتها ظافرة في اليوم الأول من شهر تشرين الأول لعام ١٩١٨ ودخلت معها الجيوش البريطانية ، ثم والت الكتائب العربية زحفها فدخلت حمص وحماة وحلب ولم يمض شهر حتى تم تحرير سوريا جميعها ، وقد قام ضباط الجيش العربي من العراقيين بدور مهم في هذه الحركة ، وكان أول ما فعله الأمير فيصل أن شكل حكومة عربية في دمشق ، وطفقت الأعلام العربية ترفرف على المدن السورية جميعها .

عهود الحلفاء ، اتفاق سايكس - بيكو ، وعد بلفور

بدأ الشريف حسين مراسلاته الرسمية قبل الثورة مع السر هنري مارك ماهون في يوم ١٤ تموز لعام ١٩١٥ وانتهت بآخر كتاب حرره مارك ماهون مؤرخ ٢٠ كانون الثاني عام ١٩١٦ وأعلن الثورة العربية في ١٠ حزيران لعام ١٩١٦ في مكة ودخلت جيوش العرب دمشق بقيادة الأمير فيصل في اليوم الأول من شهر تشرين الأول لعام ١٩١٨ وأعلنت الهدنة في اليوم الثلاثين من هذا الشهر نفسه لعام ١٩١٨ وظن العرب أنهم سيجنون ثمار عملهم وحلفهم بإعلان استقلال بلادهم الذي تعهد به الحلفاء ولكنهم فوجئوا بأمر لم يكن في الحسبان . فاجأهم اتفاق سايكس بيكو الذي عقد في مايس عام ١٩١٦ وهو اتفاق متمم للاتفاق الرئيسي مع روسيا والقاضي بتقسيم الدولة العثمانية بعد نجاح الحرب بين هذه الدول الثلاثة . وكانت حصة روسيا من هذه الغنيمة فيما يقع من بلاد تركيا خارجاً عن البلاد العربية .

وتتضمن معاهدة سايكس - بيكو بتقسيم بلاد الشام (سوريا لبنان ، فلسطين) والعراق تقسماً مزقت به هذه البلاد شراً ممزقاً ، فقد جعلت فلسطين منطقة خاصة تتكون فيها إدارة دولية يشترك بالمشورة في تسكينها الشريف مكة .

وقسمت البقية الباقية إلى مناطق تطلق يد كل دولة في منطقة واحدة منها اطلاقاً تاماً وجعلت لكل من الدولتين نفوذاً خاصاً في منطقة من المنطقتين الداخليتين المتجاورتين على أن تتكون منهما دولة عربية أو حلف من دول عربية ، دون مراعاة لوضع طبيعي أو اجتماعي أو سياسي في صالح هذه البلاد وقد روعي في هذه الخطة المصالح الاستعمارية التي تؤيد نفوذ الاستعمار في هذه البلاد وتحول دون وحدتها في يوم من الأيام .

وفي ٢ شباط من عام ١٩١٧ كتب وزير خارجية بريطانيا إلى اللورد روتشيلد تصريحا عرف باسم (وعد بلفور) هذا نصه : لي الشرف أن أخبركم باسم جلالته عن شعور الوزارة البريطانية فيما وضعته وأقرته بالنسبة إلى مساعي الصهيونية : إن حكومة جلالته تنظر بعين الرضا إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وستبذل قصارى جهدها لتسهيل الوصول إلى هذا الهدف ، على أن يكون واضحا أنه لن يحدث من جراء هذا ما يضر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية في فلسطين أو بالحقوق المدنية والسياسية التي حصل عليها اليهود في بلد آخر .

لم يدرك الحسين باتفاق سايكس - بيكو حتى نشره البلاشفة بعد سقوط القيصرية الروسية فاغتنم الأتراك الفرصة ومدوا أيديهم إلى العرب بصالح منفرد متخذين من هذا الاتفاق وسيلة ، فالتفت الحسين إلى الانسكيز يستوضحهم فجاءه الرد بهذه المذكرة :

من المهتمد البريطاني في جدة إلى الشريف حسين

جدة في ١٧ شباط ١٩١٨

جلالة صاحب السيادة العظمى ملك الحجاز وشريف مكة وأميرها المعظم . بعد بيان ما يجب بيانه من الاحترام والتوقير قد أمرني جناب نخامة نائب جلالة الملك أن أبلغ جلالتهكم البرقية التي وصلت إلى نخامته من نظارة الخارجية البريطانية بلندن ، وقد عنوتها حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى باسم جلالتهكم وهذا نصها بالحرف الواحد :

إن الرغبة والصراحة التامة التي اتخذتموها جلالتهكم في إرسال التحريات التي أرسلها القائد التركي في سوريا إلى سمو الأمير فيصل

وجعفر باشا إلى جناب نائب جلالة الملك كان لها أعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ، وإن الإجراءات التي اتخذتموها جلالتكم في هذا الصدد لم تكن إلا رمزاً يعبر عن تلك الصداقة والصراحة التي كانت دائماً شاهد العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية وحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وما لا يحتاج إلى دليل أن السياسة التي تنسج عليها تركيا هي إيجاد الارتباب والشك بين دول الحلفاء والعرب الذين هم تحت قيادة وعظيم ارشادات جلالتكم ، قد بذلوا المهمة الشماء ليظفروا بإعادة حريتهم القومية . إن السياسة التركية لا تفتأ تغرس ذلك الارتباب بأن توسوس للعرب أن دول الحلفاء يرغبون في الأراضي العربية وتلقى بأذهان الحلفاء أنه يمكن إرجاع العرب عن مقصدهم ، ولكن أفعال الدسائسين لن تقوى على إيجاد اختلاف بين الذين اتجهت عقولهم إلى فكر واحد وغرض واحد . إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاءها ما زالت واقفة موقف الثابت لسكل نهضة تؤدي إلى تحرير الأمم المظلومة ، وهي مصممة أن تقف بجانب الأمم العربية في جهادها لأن تبنى عالماً عربياً يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني ، ويتغلب فيه الاتحاد على التنافس المصطنع الذي أحدثه الموظفون الترك . إن حكومة جلالة ملك بريطانيا تكرر وعدها السالف بخصوص تحرير الأمم العربية ، وإن حكومة جلالة ملك بريطانيا قد سلكت مسلك التحرير وتقصد أن تستمر عليه بكل استقامة وتصميم بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط في وهدة الدمار ، وتساعد الذين لا يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم . وفي الختام أتمنى قبول خالص التحيات وعظيم الاحتشامات والتعنيات .

وفزع العرب من وعد بلفور فاستوضح الحسين الحكومة البريطانية

فأرسلت إليه رسولا أكد له شفويًا أن هذا الوعد لا يمس حقوق العرب السياسية والاقتصادية . والحقيقة التي انتهت إليها هاتان القضيتان ما يأتي :

فيما يخص فلسطين : لقد كان الهجوم الألماني التركي على قناة السويس مدعاة تفكير البريطانيين حيث اتهموا إلى أن شواطئ البحر الأحمر غير كافية لحفظ القناة وأن فلسطين نقطة استراتيجية مهمة للقناة فلا بد من اتخاذ وسيلة لجعلها تحت الحماية البريطانية . فكانت هذه الوسيلة ادعاء الصهيونية لها . وقد جاء بمذكرات سفير بريطانيا السابق في فرنسا اللورد برتيس : إن الخطط المؤدية إلى تكوين دولة يهودية في فلسطين قد تم الاتفاق عليها مع اليهود من جهة ومع لويد جورج ولورد جراي من جهة أخرى في كانون الثاني عام ١٩١٥ ولكن هذا الاتفاق لم ينشر . وقد كان ادعاء الصهيونيين للوطن القومي وسيلة أخرى لإبعاد فرنسا التي تدعى أن لها حقاً في فلسطين . وبذل الصهيونيون جهوداً جبارة اتخذوا لها شتى الوسائل لتحقيق هذا الوعد فاقتمعت به فرنسا في ٩ شباط عام ١٩١٨ واقتمعت إيطاليا في ٨ مايس عام ١٩١٨ واقتمعت أمريكا في ٣١ أغسطس ١٩١٨ ومهما فعل العرب وغيرهم واحتجوا وثاروا ودافعوا ودخلوا الحرب ونشر من الكتب والاقتراحات في الكتاب الأبيض وغيره فإن الخطة موضوعة منذ ١٩١٥ إلى أن خرج الانجليز من الانتداب فسلمت فلسطين إلى اليهود وشرد العرب في العراق وأغمطت حقوقهم كلها وقد عضدت بريطانيا وصديقتها أمريكا اليهود في تكوين دولتهم ونسيتا ما جاء في تصريحات واسن وعهود بريطانيا ، وإعلان حقوق الإنسان .

على أثر هذين التصريحين تألفت لجنة مكونة من سبعة أعضاء من

أحرار العرب فتقدموا بمذكرة إلى الحكومة البريطانية يستوضحونها
ويطالبون بتحديد ما جرى بين الشريف حسين وماك ماهون فجاءهم الرد
بما يأتي :

نص العهد البريطاني للسوريين السبعة :

١ — إن حكومة جلالة الملك ترغب في أن تكون عامة الشعوب
التي تتكلم اللغة العربية منقذة من السلطة التركية ، وأن تعيش فيما بعد وعليها
الحكومة التي ترغب فيها .

٢ — إن بعض البلاد العربية إما كانت تتمتع باستقلالها التام منذ
مدة أو حصلت عليه الآن وهو استقلال اعترفت به انكثرة اعترافاً تاماً
وهذا يكون شأنها أيضاً مع البلاد التي تحصل على استقلالها من الآن حتى
نهاية الحرب .

٣ — إن سائر البلاد العربية هي الآن خاضعة للترك أو تحتلها
جيوش الحلفاء فحكومة جلالة الملك تأمل ، ولها الثقة أن شعوب هذه
البلاد تحصل أيضاً على حريتها واستقلالها وأن يتخذ بشأنها عند انتهاء
الحرب قرار يتفق مع رغابها .

٤ — إن حكومة جلالاته تعتقد أن العوائق والصعوبات المقدرة
التي تقف في سبيل أحياء هذه الشعوب سيتمثل عليها تغلباً ناجحاً وهي
تعد بكل مساعدة لمن يسعى في إزالتها ومستعدة لأن تنظر في أي خطة
لعمل مشترك يلتزم مع الحركات العسكرية الحاضرة ، ويتفق مع المبادئ
السياسية لبريطانيا وحلفائها .

وفي ٧ نوفمبر عام ١٩١٨ صدر تصريح مشترك يبين الهدف الذي من
أجله حاربت فرنسا وبريطانيا في الشرق وهذا نصه :

إن السبب الذي من أجله حاربت فرنسا وانكثرة في الشرق تلك

الحرب التي أهاجتها مطامع الألمان إنما هو لتحرير الشعوب التي رزحت أجيالا طويلا تحت مظالم الترك تحريراً تاماً نهائياً وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيين لها اختياراً حراً ، ولقد أجمعت فرنسا وانكلترا على أن تؤيد ذلك بأن تشجعا وتعيينا على إقامة هذه الحكومات والإدارات الوطنية في سوريا والعراق : المنطقتين اللتين أتم الخلفاء تحريرهما ، وفي الأرض التي مازالوا يجاهدون في تحريرها ، وأن تساعدا هذه الهيئات وتعترف بها عندما تؤسس فعلا ، وليس من غرض لفرنسا وانكلترا أن تنزلا أهالي هذه المناطق إلى الحكم الذي تريدانه ، ولكن همهما الوحيد أن يتحقق بمعاونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والإدارات التي يختارها الأهليون من ذات أنفسهم وأن تضمننا عدلا منزهاً يساوي بين الجميع ويسهل عليهم ترقية الأمور الاقتصادية في البلاد بإحياء مواهب الأهالي الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ووضع حد للخلاف القديم الذي قضت به السياسة التركية تلك الأغراض التي ترمي إليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الأقطار المحررة .

اصطدام العرب بالخلفاء

(مؤتمر باريس)

بالرغم من هذه الوعود المنفردة والمشاركة فإن الخلفاء أخذوا يسيرون على الأسس التي جاء بها اتفاق سايكس - بيكو ، والصهيونية تأكيد من وراء ذلك وتبحث الخلفاء على تحقيقها بغية تحقيق وعد بلفور أما العرب فقد اطمأنوا إلى هذه الوعود وانصرف الأمير فيصل يرتب أموره في دمشق وفي البلاد السورية . وكانت الجيوش البريطانية تحتل

البلاد العربية وحدها مع الجيوش العربية ، وبينما كان المسؤولون ينتظرون ما يأتي به مؤتمر الصلح فوجئ العرب في دمشق بنزول الجيوش الفرنسية في السواحل السورية فلما احتججت حكومة دمشق العربية على ذلك أجابها البريطانيون أن هذا أمر مؤقت اقتضته الحركات العسكرية ولا يعنى اتفاق سايكس — بيكو .

وذهب الأمير فيصل إلى باريس ليحضر مؤتمر الصلح بشكليف من والده الملك حسين باعتباره أحد الحلفاء . ولكنه خاب ظنه إذ وجد تعبئة منظمة من فرنسا وانكلترا والصهيونيين لإحباط مساعيه وعدم الاعتراف به ولكن ما لبث الأمر قليلا حتى اعترف به ممثلا لحكومة الحجاز ، فبسط الأمير مطالب العرب : وكان يسود المؤتمر مثالية الرئيس ولسن في حق تقرير الشعوب مصيرها وفي عباراته التي يكررها دائما : إن تسوية أى قضية من القضايا سواء أكانت دولية أم سياسية أم اقتصادية يجب ألا تستند إلى المنافع المادية التي تؤدي إلى استغلال الغير .

غير أن هذا المؤتمر ما لبث أن وضع حق تقرير مصير الشعوب العربية التي انفصلت عن تركيا في المادة (١٩) من مقرراته والتي كان ما يخص البلاد العربية منها قد تبلور فيما بعد في هذه الفقرة من المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم وهي : « وهناك شعوب معينة كانت تابعة للدولة التركية قد وصلت من التطور درجة تضعها في مصاف الأمم التي يمكن اعتبارها مستقلة مبدئياً ، على شرط أن تقبل مشورة ومساعدة دولة منتدبة في تدوير شئونها وتستمر حتى تصل إلى مكانة تستطيع بها الاستغناء عن هذه المشورة والمساعدة وأن تراعى رغبة هذه الشعوب في اختيار الدولة المنتدبة » .

لقد كان الصراع عنيفاً في مؤتمر باريس بين فرنسا وانكلترا صاحبتى اتفاق سايكس — بيكو من جهة وبين منافستهما إيطاليا وصاحب الحق

الشرعى ملك الحجاز من جهة أخرى ، وكانت كل من فرنسا وانكلترا تحاولان التفاهم على تعيين الحدود وتوضيحها لتحقيق رغبة كل واحدة منها ورأت انكلترا أن هذا الاتفاق فى وضعه الحالى مضر فى مصالحها فكان ما كان من ارجاع أحواض النفط فى لواء الموصل إليها ، ومن ثم السكوت عن تدويل فلسطين حيث انتهى الأمر فيما بعد بوضعها تحت بشرط مراعاة تنفيذ وعد بلفور .

ومن نتائج هذا المؤتمر تأليف لجنة تحقيق أو استفتاء لمعرفة رغبات أهل البلاد العربية . وقد رجعت هذه اللجنة بتقرير مفصل خلاصته : عدم التوصية بالانتداب الفرنسى على سوريا ، والمحافظة على وحدة سوريا وفى ضمنها فلسطين مع إعطاء لبنان حكما ذاتيا فى نطاق الوحدة السورية وأن يبقى العراق قطراً واحداً ، وأن يقوم حكم ملكى دستورى فى كل من الانتداب البريطانى العراق وسوريا .

ولكن معالم هذه اللجنة طمست ولا شك فى أن ذلك من فعائل اليهود وتدبيرهم . رأى الأمير فيصل هذا الاضطراب وأنه لا مناص من التفاهم مع فرنسا . فتم اتفاق بينه وبين كليمنصو اشتركت فى المشورة فيه بريطانيا : فلما عرضه على المسئولين فى سوريا رفضوه .

إعلان الاستقلال ومبايعة الملك فيصل

وما ترتب على ذلك

أدرك العرب نوايا الغرب وتأكد لهم أن اتفاق سايكس - بيكو سوف تدعمه الصهيونية فى أنحاء العالم وسوف تعي له الصحافة والمحافل السياسية حتى تحققه فاجتمع المؤتمر السورى العام فى ٧ مارس عام ١٩٢٠ وأعلن استقلال سوريا جميعها بما فيها فلسطين ولبنان وأن يكون شكل الحكم فيها ملكيا دستوريا واحتفظ القرار للبنان بحكم ذاتى ضمن

الدولة السورية . ثم المنادة بالأمير فيصل ملكاً على سوريا . واجتمع زعماء العراق وأعلنوا استقلال العراق والمنادة بالأمير عبد الله ملكاً عليه وفي اليوم الثامن من هذا الشهر توج فيصل بتاج الملك السوري . قرر العرب هذه المقررات الخطيرة وجيوش بريطانيا تحتل العراق وفلسطين وجيوش فرنسا تحتل السواحل السورية وتتقدم في كل لحظة إلى الداخل . فأغضب هذا القرار الحلفاء فاجتمع مجلسهم الأعلى في سان ريمو من أعمال إيطاليا في ٢٥ نيسان ١٩٢٠ وأعلن :

١ — وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي بدولتين منفصلتين .

٢ — وضع العراق تحت الانتداب البريطاني .

٣ — وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني مع تنفيذ وعد بلفور . فكانت هذه المقررات مفاجأة مفرجة أملاه عملاق الظلم وجبروت الاستعمار على أمة وديعة تطلب حقها وتستنجز وعداً طالما أعطى لها .

الحرب بين فرنسا والعرب

وخروج فيصل من الشام

أخذت فرنسا تزحف على داخل سوريا وتبرر زحفها على أساس أنها دولة منتدبة أو أنها دولة فرضت نفسها فرضاً دون رغبة أهل البلاد . وكانت جيوشها مسلحة تسليحاً كاملاً وبينما كانت جيوشها ترتد متقهقرة أمام الكماليين المسلحين كانت جيوشها تتقدم إلى الأمام بسلاح يفوق سلاح الجيوش العربية . وكان العرب يستمدون إلى العهود وفرنسا تستند إلى القوة .

وبينما كان الملك فيصل يتأهب للرجوع إلى باريس ليحضر مؤتمر الصلح وليبسط شئون البلاد أبلغه الجنرال غورو أنه لا يوافق على سفره

ما لم تحل المسألة السورية . وفي يوم ١٤ تموز ١٩٢٠ أنذره إنذاراً محدداً فيه المطالبات الآتية :

١ — وضع الخط الحديدي بين رياق وحلب تحت الإدارة الفرنسية ومراقبتها .

٢ — استغلال فرنسا لمحطات الخط الحديدي في حمص ، حماة وحلب .

٣ — تداول العملة السورية التي أصدرتها فرنسا .

٤ — قبول الانتداب الفرنسي على سوريا .

٥ — معاقبة عصابات الشوار .

٦ — تنفيذ هذه المطالبات خلال أربعة أيام وإلا نفذت بالقوة

عرض الملك هذا الإنذار المفاجيء على مجلس وزرائه فدرسه ووجد أن البلاد غير قادرة على الدفاع إذا استعمل الفرنسيون القوة . وأن هذه المطالبات ما هي إلا وسيلة للقضاء على استقلالها ، ومع ذلك قبل الإنذار رسمياً غير أن الفرنسيين تقدموا بحجة أن الجواب جاءهم متأخراً وكيف يمكن أن يتأخر وقد أبرق من دمشق إلى بيروت ولسكن فرنسا شأنها في كل أعمالها أن تترك متن الظلم والخيانة وتاريخها مع الجزائر وتونس معروف .

تقدمت جيوشها فلم ير العرب بداً من صدها بعد أن فهموا نواياها لكن سلاحها القوى المتفوق حصد الأحرار واستشهد وزير الحربية في موقعة ميسلون وتم احتلال دمشق . وطلب غورو من فيصل أن يغادر البلاد في أسرع ما يمكن ، فاضطر الملك العربي أن يغادر البلاد إلى أوروبا حيث حليفته في السلاح بريطانيا ليبسط لها أفعال الخليفة الثانية فرنسا وفي معاهدة الصلح التي تمت في سيفر في ١٠ أغسطس ١٩٢٠ أيدت المواد ٩٤ - ٩٨ منها ما جاء في المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم تم وضع سوريا تحت الانتداب واعتبارها دولة مستقلة مبدئياً .

وبعد انهيار الحكومة الوطنية قسمت فرنسا سوريا ودويلات وبدأت أعمال التخريب الاجتماعى والسياسى والاقتصادى فى هذا البلد الأمين .

الانتداب على العراق

مبايعة الملك فيصل وتتويجه ملكاً على العراق

وثبت إنكثرة على العراق عند إعلان تركيا الحرب عام ١٩١٤ وبعد مساجلة فى المواقع بينها وبين جيوش الدولة العثمانية استقرت جيوش بريطانيا فى البصرة . واتخذتها قاعدة لحركاتها فى هذا القطر العربى وظلت الحرب سجلاً بين جيوش الانجليز وجيوش الترك خسر فيها الانجليز والترك عدداً عظيماً من الضحايا والمعدات . إلى أن انتهى الأمر باحتلال الموصل على أثر إعلان الهدنة .

وهكذا احتل الانجليز العراق وحكموه حكماً مباشراً ، والعراق جزء من البلاد العربية المتبقية المتطلعة إلى الاستقلال لعب أبنائه دورهم المهم فى الثورة العربية الكبرى إذ كانوا يؤلفون العدد الأكبر من ضباط العرب فى الجيش العثمانى .

زد على ذلك فإن المنتهين إلى جمعية الإصلاح وغيرها من الجمعيات قد أدوا نصيبهم فى هذه الحركة .

وبينما كان العراق يتطلع إلى إعلان استقلال الدولة العربية إذ يسمع بالانتداب يفرض عليه فرضاً دون أخذ رأيه . وإذا به يقيد بالسلاسل وبعد أن كان العراق سمع من منشور الجنرال مود يوم ١٩ آذار سنة ١٩١٧ ألفاظ الحرية والتحرير إذ به يرى الانجليز يسدرون فى غلوائهم ويعلنون الانتداب فانتفض العراق تلك الانتفاضة الهائلة . وقبل أن نذكر طرفاً

منها ومن نتائجها ثبت هنا منشور الجنرال مود لقيمته التاريخية قال :

يا أهالى ولاية بغداد :

إنني باسم مليكي المعظم واسم شعوبه التي يحكم عليها أوجه إليكم
الخطاب الآتي :

إن الغرض من معاركنا الحربية هو دحر العدو وإخراجه من هذه
الأصقاع ، فإتماماً لهذه المهمة وجهت إلى السلطة المطلقة على جميع
الأطراف التي تقاتل فيها جنودنا .

إن جيوشنا لم تدخل مدنكم وأراضيكم بصفقتهم قاهرين أو أعداء
بل بصفقتهم محررين فقد أخضع مواطنوكم منذ أيام هولاء كواظم الغرباء
نحربت قصوركم وذوت حدائقكم وفنى أشخاصكم وأسلافكم من جور
الاسترقاق ، لقد سيق أبناؤكم إلى حروب لم يلدوها وجروكم القوم
الظلمة من ثروتكم وبددوها في أصقاع شاسعة . تكلم الترك من أيام
مدحت باشا على الإصلاح ، أفليس دثور العراق واقفاره برهاناً على
بطان هذه المواعيد .

وأنها ليست أمنية جلالة مليكي المعظم وأمنية شعوبه فقط ، بل هي
أمنية الأمم العظمى المتحالفة معها حكومة جلالته أن تعودوا كما في السابق .
وقد كانت أراضيكم مخصصة وكان العالم يتغذى بألبان آداب أجدادكم
وعلومهم وصناعاتهم وقد كانت بغداد إحدى غرائب الدنيا ، لقد أنيط
قومكم بممتلكات جلالة مليكي المعظم بعروة المصالح الوثقى ، فقد تبادل
تجار بغداد وتجار بريطانيا من متى سنة المنفعة والصدقة .

أما الألمان والأتراك الذين نهبواكم أتم وذويكم فقد اتخذوا بغداد
مدة عشرين سنة مركزاً يهجمون منه على نفوذ البريطانيين وحلفائهم
في إيران والبلاد العربية ولذلك لم تستطع الحكومة البريطانية السكوت
عما يحدث في وطنكم حاضراً أو مستقبلاً ولا تتسامح قياماً بواجب
مصلحة الشعوب البريطانية ومصلحة حلفائها في أن يرتكب الترك
ما ارتكبه مرة ثانية في بغداد .

ويجب عليكم يا أهل بغداد يا من جئنا نحميكم من الظلم والغزو ونضمن حرية تجارتكم ، ويا من ستعالون ما يستوجب أدق اهتمام الحكومة البريطانية أن تعملوا أن هذه الحكومة لن تفرض عليكم أنظمة أجنبية عنكم فأمنيتها الوحيدة أن تحقق ما تطمح إليه نفوس فلاسفتكم وكتابكم مرة أخرى ، ولسوف يسعد أهالي بغداد ويتمتعون بالغنى المادى والأدبى بفضل نظامات توافق قوانينهم المقدسة وأطامعهم القومية ، لقد طرد العرب فى الحجاز الترك والألمان الذين بغوا عليهم ونادوا بعظمة الشريف حسين ملكا عليهم ، وعظمته يحكم مستقلا حراً وهو متحالف مع الأمم التى تحارب دولتى تركيا وألمانيا وهذا شأن أشرف العرب وأمراء نجد والكويت وعسير . لقد ذهب كثيرون من أشرف العرب ضحية فى سبيل الحرية على أيدى أولئك الحكام الغرباء الذين ظلموهم وانكثرت وحلفاؤها مصممون على ألا تذهب دماء هؤلاء الأبطال هدرا ، وأمنية انكثرت وحلفاؤها أن تسمو الأمة العربية مرة أخرى . وتستعيد عظمتها ومجدها ، وأن تعمل لإدراك هذه الأمانة متحدة مثقفة .

يا أهل بغداد تذكروا أنكم تألتم ٢٦ جيلا إذاكم الظلمة والغرباء الذين سعوا دائماً إلى الإيقاع بين البيت ورب البيت كي يستفيدوا من شقاقكم فهذه السياسة مكروهة عند بريطانيا وحلفائها لأنها إغراء بالعداوة ولا يستقيم معها حال ولا يستقر معها سلام وأنا مأمور بأن أدعوكم بواسطة أشرافكم وشيوخكم الطاعنين فى السن وممثليكم إلى الاشتراك فى إدارة مصالحكم الملكية لمعاوضة ممثلى بريطانيا السياسيين المرافقين للجيش كما تنضمون إلى ذوى رحمكم شمالاً وشرقاً وجنوباً وغرباً فى تحقيق أطامعكم القومية .

صدر من مركز رئاسة الجيش البريطانى ببغداد فى ٢٤ جمادى الأولى .

سنة ١٣٣٥ الموافق ١٩ مارس سنة ١٩١٧ .

ظل الإنجليز رغم وعودهم يديرون الحكم في العراق بأيديهم والبلاد تنتظر حكماً وطنياً مستقلاً حراً في أعماله وإدارة شئون بلاده حتى أعلن الانتداب على العراق في مؤتمر سان ريمو وتم تأييده في مؤتمر سيفر فهاج العراق من أقصاه إلى أقصاه وأذاعت جمعية العهد (التي ألفها الضباط العرب في الجيش العثماني قبل الحرب والتي كان جل أعضائها من الضباط العراقيين) بياناً نددت فيه بهذه المقررات ودعت العراق إلى مقابلة هذا العمل بالقوة وكانت قد أنشئت جمعية سرية عرفت باسم جمعية حرس الاستقلال في تشرين الثاني من عام ١٩١٩ غايتها استقلال العراق استقلالاً تاماً دون الحاجة إلى مساعدة بريطانيا ثم تم الاتفاق بين جمعيتي العهد والحرس وتشكلت منهما لجنة مشتركة لتوحيد الجهود . وكان العراق يتأجج ويتأهب فالتهمت الثورة في كل مكان من العراق ووقعت الحوادث الدموية التي أبانت عن قوة الثورة وخسر الإنجليز فيها خسائر فادحة . فرجعوا إلى الصواب وبدءوا يفسكرون في تأليف حكومة وطنية تدير البلاد باستشارة البريطانيين ومهدت بريطانيا لذلك لإقامة حكم ملكي دستوري . وكانت نتيجة مؤتمر القاهرة الذي دعا إليه تشرشل في مارس ١٩٢١ دعوة الأمير فيصل إلى العراق وأجرى استفتاء شعبي نال به الأمير ما يكاد أن يكون اجماعاً فقد كانت النتيجة بجانبه بنسبة (٩٧٪) وفي ٢٣ أغسطس من عام ١٩٢١ توج فيصل ملكاً على العراق فبدأ العراق حياة جديدة في اصطراع بين الأمان الوطني ومطالب الإنجليز . وفي رغبة الملك والشعب في تحديد الصلة بين العراق وبريطانيا وضعت نصوص معاهدة تم عقدها في ١٠ تشرين الأول من عام ١٩٢٢ على أن يتم تنفيذها بعد مصادقة المجلس التأسيسي عليها ، وقد حددت هذه المعاهدة صلة العراق ببريطانيا في قبول استشارة الانكليز في الأمور المالية والخارجية وألحقت بها اتفاقات قضائية وعسكرية ومالية والغرض منها تأمين مكانة

الإنجليز في البلاد . وعورضت هذه المعاهدة معارضة شديدة لما فيها من المخالفة لسيادة البلاد . ولكن المجلس التأسيسي صادق عليها طمعا في وضع حد للانتداب وتمشياً مع سياسة خذ واعط . ثم انصرف المجلس التأسيسي لوضع دستور البلاد على أسس ديمقراطية سليمة وضمت فيه حقوق الشعب والملك وجرت فيه تعديلات أخرى أهمها أنه أصبح الملك حق إقالة الوزارة بعد أن كانت تبقى في الحكم ما دامت متمتعة بثقة الأكثرية . بعد استقرار البلاد الدستوري بدأت صلات العراق تتحدد في كل فرصة بينه وبين بريطانيا حتى كانت معاهدة ١٩٣٠ التي ارتكزت على أساس أن بريطانيا ترشح العراق للدخول في عصبة الأمم في عام ١٩٣٢ دولة مستقلة ذات سيادة . وتقوم بمحالفه بين البلدين تستمر خمسة وعشرين عاماً ، تسوى فيها مصالح الطرفين بطريق التشاور وتبادل الرأي ، وأن تتخلى بريطانيا عن جميع المسؤوليات الملقاة على عاتق الدولة المنتدبة وتنتقل المسؤوليات إلى ذلك العراق . وفرضت المعاهدة مساعدات متبادلة من الطرفين قوبلت بمعارضة شديدة في البلاد ومع كل هذه المعارضة صودق عليها .

أصبح العراق يمارس حكم الوطني المستقل بعد أن دخل عصبة الأمم عام ١٩٣٢ وزال عنه الانتداب وهو في سبيل التخلص من هذه المعاهدة بعد انتهاء مدتها ، إذ أصبح مفعولها لا وجود له بعد أن أصبح العراق عضواً في هيئة الأمم المتحدة . ومشى العراق شوطاً واسعاً في ميدان الثقافة والعمران وقد وضع الخطط لإنجاز مشروعات ضخمة اقتصادية واجتماعية وبدأ في تنفيذها فعلاً .

شرق الأردن

كان اتفاق سايكس - بيكو مزق البلاد العربية شر ممزق وكانت فلسطين شلواً من هذه الأشلاء التي كان يجب أن تكون دولية ، أي توضع

تحت إدارة دولية ، ولكن اليهود سعوا سعيًا حثيثاً لإبطال هذا النص وتم وضعها تحت الانتداب الإنجليزي ليتموا الصفقة ، وكانت أراضى شرق الأردن بعيدة عن هذا التدويل ، وبعيدة في نظر الإنجليز أن تكون تحت انتداب الفرنسيين ، فلما حلَّ بها الأمير عبد الله كى يشار لفیصل من فرنسا انبطت فكرة وضعها في مؤتمر القاهرة الذى دعا إليه تشرشل في شهر مارس من عام ١٩٢١ وتم تكوين الإمارة على أن يكون عبد الله أميراً عليها وأن تعينه بريطانيا بنفقات هذه الإمارة الصغيرة ، ومشت تتقدم حتى أعلنت الملكية وبويع عبد الله ملكاً عليها . لم يشمل وعد بلفور هذه المنطقة العربية فظلت بعيدة عن أنشطته فلما نفذ الإنجليز والصهيونيون خطتهم في إقامة إسرائيل أضيف إليها القسم العربى الذى قضى به التقسيم فازدادت هذه المملكة الصغيرة اتساعاً ولا تزال تصطرع مع هذه الدولة النابطة على حدودها وحدود البلاد العربية الأخرى ولا يزال الاضطراع قائماً والعرب الذين تركوا ديارهم لا يزالون مشردين بالعراء يفتك بهم أعداء الإنسانية الجوع والمرض والجهل وضمير أوربا وأمريكا جامد لا يتحرك .

بعض الحركات الاستقلالية والثورات

صارعت فلسطين صراعاً عنيفاً أمام ذهب اليهود وكيدهم وسياسة المستعمر وقوى الغرب التى عبأتها إسرائيل ، وكانت هذه الثورات تهدأ بمائدة مستديرة تعقد بين الطرفين ، ولجان تؤلف لتحقيق هذه القضايا ، وخطط ومشروعات توضع ، ولكنها كانت كلها مخدراً حتى إذا حل وقت انتهاء الانتداب كان اليهود على استعداد تام لاستلام أقسامهم التى وضعت في الخطط المرسومة ، ووقفت الجيوش العربية تنظر إلى هذا البلد تستقطع دياره داراً بعد دار ، والأسر العربية تتراكم من الذعر

والخوف والفرع الذي ألقاه اليهود في قلوبهم حتى خرجوا من ديارهم إلى العراق وهكذا نبئت مأساة لا تزال فصولها يرفع عنها الستار فصلا بعد فصل .

سوريا ولبنان

لم تهدأ سوريا منذ أن نزلت جيوش فرنسا في سواحلها وزحفت على مدنها تتغافل في البلاد حتى وقعت واقعة ميسلون وقضى على حكومة الملك فيصل . ظلت هذه الواقعة الغادرة تتردد في سمع العالم العربي وفي قلوب أبناء البلاد حتى ثارت سوريا لنفسها في ثورتها الكبرى عامي ١٩٢٥ - ١٩٢٦ . ووقفت البلاد السورية يعصدها العالم العربي وقفه مشرفة في وجه الظلم ، فان الفرنسيين أخذوا في تنفيذ خططهم لقتل الروح الوطنية وإفقار البلاد وبث التفرقة بين أبناء البلد الواحد وإيجاد الشحنة وتخويف البلاد من جيرانها وتنازلها عن لواء الاسكندرونة الذي يعتبر جزءاً من البلاد لتركيا وكم مرة خربت مدينة دمشق بالمدافع والطائرات وهجمت البيوت على العجزة والنساء والأطفال وما كانوا يظهرونه من المسايرة للوطنيين كان ستاراً ينفذون وراءه خططهم وظلوا على هذه الحال في صراع مستمر وتفكير وتجويع وإعانة على إبقاء الجهل ومحاربة التعليم حتى وقعت الحرب العالمية الثانية التي انهارت بها هذه الدولة المستعمرة .

وبالرغم من انهيارها أخذت قواتها تحاول القضاء على كل فكرة تدعو إلى تحرير البلاد وشدت غارة شعواء على دمشق تسندها الطائرات والدبابات وقنابل المدافع الثقيلة تتساقط على الدور والشوارع . وتدخلت الحكومة البريطانية في الأمر وأيدتها أمريكا ، وقامت البلاد العربية وقعدت لهذه المأساة وكان دور الجامعة العربية دوراً مهماً فكان

من نتيجة ذلك كله إيقاف نيران الفرنسيين وإجبارهم على الجلاء عن البلاد وقد تم الجلاء عن سوريا في يوم ١٥ نيسان واحتفل به واعتبر عيداً قومياً في يوم ١٧ نيسان من عام ١٩٤٦ كما تم الجلاء عن لبنان في العام نفسه في ٣١ من شهر كانون الأول واعتبر هذا اليوم أيضاً عيداً قومياً .

مصر

لمصر الحظ الأكبر في اليقظة الفكرية والسياسية في مفتح القرن التاسع عشر ، لقد حفظ الأزهر تراث العرب والإسلام فكان مصدر غذاء لهذه اليقظة أعان مصر على أن تتبوأ مكانة مرموقة في العالم العربي ، فإن البعث التي أرسلت إلى أوربا أيام محمد علي باشا كانت كلها من هذا الجامع فلما أتمت دراستها عادت تحمل ثقافة الغرب إلى بجانب الثقافة الإسلامية فبدأت نهضة عربية أدبية وعلمية كان لها أكبر الأثر في حركات الشرق العربي والإسلامي . زد على ذلك فإن مصر صارت مابجاً الأحرار من العرب يبشون آراءهم في محافلها وصحفها ومنها ينشرون للعالم ما يريدون ، ولكن مصر هذه منيت كما منيت كل دولة عربية في هذا الشرق العربي باعتماد عفيف فقد نزلت جيوش بريطانيا في الاسكندرية عام ١٨٨٢ فكان بدء صراع بين قوة تحاول إخماد كل حركة فكرية وصناعية وهي قوة المستعمر وبين قوة تريد أن تنهض وتتحرر وهي قوة أهل البلاد وقد انبعث في هذا الوادي أحرار قارعوا الظلم وأيقظوا الأمة منهم أحمد عرابي في الجيش ، وجمال الدين ومحمد عبده في السياسة والاجتماع ومصطفى كامل وسعد زغلول ومصطفى النحاس في السياسة وكل هؤلاء كانوا حارباً على هذا الاحتمال الذي لم يجد له العالم الحر معنى في قاموس حقوق الإنسان .

احتلت بريطانيا مصر من عام ١٨٨٢ وظلت تتصرف كيفما تشاء إلى أن أعلنت الحرب العالمية الأولى فأعلنت بريطانيا حمايتها على مصر في ١٨ كانون الأول عام ١٩١٤ وقطعت بهذا الإعلان صلة مصر بالدولة العثمانية وخلعت الخديوى وأقامت آخر مقامه أعطته لقب « السلطان » كان الحكم الفعلي في مصر للمندوب السامى وكانت هذه الحالة لا ترضى أحرار المصريين . لقد لعب الحزب الوطنى الذى ألفه مصطفى كامل دوراً مهماً فى إيقاظ النفوس وإسماع صوت مصر للعالم نائراً على هذا الاعتداء وقد لان الإنجليز فى بعض الأحيان وأعطوا شيئاً من الحقوق لمصر ولسكنها منح القوى الجبار غليظ القلب إلى الأعزل صاحب الحق ، فلما وضعت الحرب أوزارها وهدأت أعصاب الأمم المتوترة فتحت مصر عينيها على وضع غير طبيعى ، فإن مبادئه ولسن قد ملأت سمع العالم وأن أسباب الحرية والدولة كاملة متوفرة فى مصر فلماذا لا تستقل ولماذا يبقى هذا الوضع ؟

برز سعد زغلول للوجود فألف وفداً باسم الشعب المصرى وذهب إلى المندوب السامى يبلغه مطالب مصر وأمانها فكانت نقطة بدء لصراع عنيف . انتهت باعتقال سعد وعدد كبير من إخوانه الأحرار وأرسلتهم إلى مالطة فى ٨ مارت من عام ١٩١٩ فثارت البلاد من أقصاها ، واضطرت إنجلترا إلى تصريح ٢٨ شباط عام ١٩٢٢ وفيه إلغاء الحماية واعتبار مصر دولة مستقلة ذات سيادة واتخذ سلطان مصر لنفسه لقب الملك وأعلن دستور المملكة فى ١٩ نيسان ١٩٢٣ ورغم هذا الوضع الواضح فإن بريطانيا جاثمة فى صدر القناة تتدخل فى شئون مصر تدخلا لم يرض الأحرار ، وظل الصراع مستمراً فى طلب الجلاء عن مصر والسودان وهو طلب لا شك فى عدالته ، كانت تنشأ مفاوضات بين

(١٧)

مصر وبريطانيا ، وكانت هذه المناوصات شبه مادة مخدرة تفشأ ثورات الوطنيين ولكن إلى حين .

فكم مرة وعدت بريطانيا فأخلفت ، وكم فاوضت فراوخت ، ومصر صابرة مثابرة إلى أن عقدت بينهما معاهدة ١٩٣٦ حددت فيها العلاقات بين مصر وبريطانيا على أن تستمر عشرين عاماً ، وفيها ألغيت الامتيازات الأجنبية التي كلفت مصر جهداً وخلقاً ، فقد استغلها الأجانب استغلالاً فظيماً خارجاً على حدود الإنسانية ، وفي هذه المعاهدة الاعتراف بسيادة مصر ، وإنهاء الاحتلال العسكري ، وهذه المعاهدة على مكاتنها لم تجد فيها بريطانيا إلا حبراً على ورق عندما تريد أن تملي إرادتها فيما يهم مصالح الإمبراطورية ، ورغم من إلغاء مصر لها فإن بريطانيا لا تزال متمسكة بها ، وقد زالت الملكية من مصر وأعلن النظام الجمهوري ، ولا تزال المفاوضات مستمرة متقطعة ، للخلاص من هذا الاحتلال الجاثم على صدر القناة ، إن مصر دولة مكتملة بكل معاني الاكتمال لدولة في القرن العشرين ، تقدمت شوطاً عظيماً في الحضارة والثقافة وهي البلد العربي الوحيد الذي يملك ثلاث جامعات وفي سبيل إنشاء جامعة رابعة ، عدا المعاهد العلمية العالية ، ودوائر البحوث ومختبرات التجارب ، ولها وضعها الاقتصادي المنتظم ومكانة دولية مرموقة وعدد من السكان يجعلها في عداد الدول الكبيرة .

شبه الجزيرة العربية

وفي شبه الجزيرة العربية استقر الملك لابن سعود في ضم الحجاز وعسير إلى سلطنته فأعلن النظام الملكي وتسمت مملكته باسم المملكة العربية السعودية ، ونبتت آبار البترول في ديار نجد فاستطاع أن يدخل

أساليب الحضارة بصورة واسعة ، ويدشر الثقافة بصورة أوسع ، ويعنى في إيجاد جيش مدرب ، ويحضر البدو ويجعل للمملكة نظاماً مستقراً على أسس المركزية فهو يعين الولاة وهو الذى يوجههم فى أعمالهم ويسير فى حكمه هلى أسس الشريعة الإسلامية والقرآن الكريم ، فالأمن منتشر فى البلاد والجرائم قلما يسمع عنها ، وفى هذا السير الحثيث فى المعارف وإدخال وسائل المدنية والحضارة أصبحت المملكة العربية السعودية تتمتع إلى مستقبل يكون لها فيه شأن .

والمملكة اليمنية المتوكلية قد خرجت عن عزلتها وأصبحت تبعث البعث للدراسة فى الشرق والغرب وتعنى بدشر الثقافة وإدخال أساليب الحضارة ، ولكنها لا تزال فى صراع دائم بينها وبين المستعمر ، على أن هذا الصراع يلقى فى كل يوم دروساً على اليمن للاسراع فى استكمال العدة والعدد وتهيئة أجيال قادرة على رد العدوان واسترجاع ما اقتطع منها إلى حضيرة البلاد .

جامعة الدول العربية

هى أمنية كانت تتردد على فم كل من يشعر بحق هذه البلاد فى الوجود ، ويقرأ أجداد آبائه الأولين ويلج فيها مواطن العزة والقوة والتكوين ، ثم يرى كيف أصبحت الأمم تطمع فى طمس معالم هذه الأجداد والاستيلاء على موارد الرزق ومصادرها فى بلاده ، ذلك للانفراد الذى بعثته ظروف الماضى وتركته يتقوى من حيث يضعف ، فالفردية القوية فى نفسها أضعاف المجموعة . كان شعور أبناء هذه البلاد يزداد يوماً بعد يوم ويقوى فى إيجاد رابطة فيها معنى القوة وفيها معنى العزة التى تحافظ على كرامة الحرية ، الصحف تنشر ، والخطيب يخطب ، والمؤلف يؤلف ، وإنك لا تمر فى بحث يتناول قضايا الشرق العربى إلا تعرض

للوحدة والاتحاد ، لما في ذلك من خلاص هذه البلاد من أطماع الطامعين وأخطبوط المستعمرين .

إن التفكير في تكوين جامعة الدول العربية وحده فيه إجابة هذه الرغبة فكيف بها إذا التأمت وبدأت أعمالها ، لقد أثبتت الحروب الحديثة أن أية أمة من الأمم لا تستطيع وحدها أن تقوم بحرب لاسترداد حق ، أو دفاع عن حق ودفع لباطل ، وقد يسرى هذا الرأي على مشروعات السلم .

إن تأريخ الحروب الحديثة شاهد عدل على تكوين مجموعات متباينة الأجناس موحدة المصالح تترابط فيما بينها ، وتتفاهم على هدف معين بصوت مصالحها مجتمعة ، فكيف بدول الجامعة ؟

إن لهذه البلاد تاريخاً تلتقى فيها أمجادها ، ولها ثقافة تكاد تكون موحدة ، ولها روابط جغرافية ومصالح اقتصادية ، ولغة واحدة ووشائج اجتماعية تميزها عن بقية الأمم مما يسهل عليها الألفة والاجتماع ، زد على ذلك رابطة الدم والعقيدة ، لجامعة الدول العربية تكاد تكون في مجموعها لها مقومات الدولة الواحدة ، ولم لا ؟ ألم تكن هذه الدول في يوم من الأيام مجتمعة يظلمها علم واحد وجيش واحد ومالية واحدة ؟ أفليس من السهل عليها أن توحد جهودها لخير الإنسانية ولصالح بلادها ؟ إن في هذه الجامعة من عناصر قوى الاجتماع والسياسة ما لم يتوفر في أية مجموعة إقليمية أخرى ، ولو استطيع التوسع لحذفت هذه الصفة « صفة المجموعة الإقليمية » ولأطلقت عليها ما هو أكثر دلالة على وحدة لا تنقسم عراها .

لقد تحقق إذن شطر عظيم من هذه الرغبة التي كان يفيض بها شعور كل مخلص لهذه البلاد ، ووجدت الأمم الأجنبية في تكوينها خيراً عظيماً للإنسانية والسلم العالمي ، إنني واثق جد الشقة أنه كلما تقدمت هذه الجامعة من ذروة القوة قوى الأمل باستمرار السلم في هذا الشرق وانصرفت

عنه مطامع الدول الجشعة المتطاحنة على الأسواق والمواد الأولية والنقاط الاستراتيجية . فالدول العربية مجتمعة تستطيع أن تحافظ على التوازن الدولي ، وتستطيع أن تملئ سياسة مثلى على العالم .

وموجز القول : إن القصد من تكوين الجامعة قصد شريف ، ويهدف هذا القصد : في حفظ السلام في الشرق الأدنى ، ورعاية مصالح هذه الدول المؤلفة منها الجامعة ، ثم حفظ التوازن الدولي .

إن تكوين الجامعة دليل على صحة يقظة العرب ونضوج هذه اليقظة ، وكلها اتسع أفق في هذه الناحية اشتد الترابط وتقاربت الآراء وتوحدت الجهود .

بدأت فكرة الجامعة مضمبة في أذهان الناس وأمنية يتمنونها ، ثم ما لبثت أن اتضحت خطوطها وبانت معالمها .

فقد دعت الحكومة المصرية في منتصف أغسطس عام ١٩٤٣ كلا من سوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية والعراق واليمن وشرق الأردن إلى إيفاد مندوبين عنها لتبادل الآراء في موضوع الوحدة العربية فكانت هذه أول خطوة في وضع أسس الجامعة وما زال البحث مستمر حتى تم وضع الميثاق واجتمع المؤتمر العربي العام بقصر الزعفران بالقاهرة يوم الخميس ٨ ربيع الثاني في عام ١٣٦٤ الموافق ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ في الساعة الرابعة بعد الظهر برئاسة محمود فهمي باشا النقراشي رئيس وزراء المملكة المصرية ووقع مندوبو الوفود العربية ما عدا ممثلو المملكة العربية السعودية والمملكة اليمنية ميثاق جامعة الدول العربية وبذلك تم ميلاد قوة لهذا الشرق يحسب لها حسابها . ثم ما لبث الأمر حتى وقعت جميع الدول العربية وصار من المقرر أن يكون ٢٢ مارس من كل عام عيد ميلاد الجامعة .

وقد نص الميثاق على أنه لـسـكـل دولة عربية مستقلة حق الانضمام للجامعة وحق الانسحاب ، وهذا الحق الأخير مقيد بشرط أن تخبر الدولة المنسحبة مجلس الجامعة قبل ذلك بسنة .

أما أهداف الجامعة فقد أوجزتها المادة الثانية من الميثاق وهى :

الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها والنظر بصفة عامة فى شئون البلاد العربية ومصالحها .

ومن أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً بحسب نظم كل منها وأحوالها فى الشئون الآتية :

(أ) الشئون الاقتصادية والمالية ويدخل فى ذلك التبادل التجارى والجمارك والعمللة وأمور الزراعة والصناعة .

(ب) شئون المواصلات ، ويدخل فى ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والبرق والبريد .

(ح) شئون الثقافة .

(د) شئون الجنسية والجوازات والتأشيرات وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين .

(هـ) الشئون الاجتماعية .

(و) الشئون الصحية .

ولا ريب فى أن الجامعة العربية قطعت شوطاً فى البحوث الثقافية وتقارب المناهج وتوحيد الثقافة ، كما فعلت فى حقل الشئون الاجتماعية بما تقيمه من الحلقات الدراسية فى هذه الناحية . ومست شوطاً واسعاً فى القضايا السياسية ولكن العرب يأملون منها أكثر وسوف يأتى

اليوم الذي يمكن لهذه المؤسسة أن تحدد مكانة الشرق الأوسط في الصراع الدولي .

إن العالم العربي الذي يمتد في سلسلة طرفها الغربي يشرف على سواحل المحيط الأطلنطي ثم تمتد مارة بالشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط فتشرف على البحر الأحمر والمحيط الهندي في الشرق فتتضم بين خدماتها شمال أفريقيا ومصر وبلاد الشام (سوريا ، فلسطين ، لبنان) والعراق وقلب الجزيرة ، تكون قوة هائلة تستطيع أن تتحكم في التوازن الدولي . إن لها من أمجادها وما أثرها ما يمكن أن يكون معيناً لا ينضب تستمد منه قوة تضمها إلى ما تسكتسبه في يقظتها هذه فتكون من مجموع ذلك كله مادة ممتازة تقدمها للإنسانية والحضارة .

ثبت المصادر العربية

وفيه ما نشره المستشرقون وعلقوا عليه

- | | |
|-------------|---|
| الطبري | : طبع أوربا من سنة ١٨٧٩ إلى ١٩٠١ |
| نولدكه | : تاريخ الفرس والعرب في أيام الساسانيين مأخوذاً عن تاريخ الطبري ليدن ١٨٧٩ |
| اليعقوبي | : طبع أوربا ١٨٨٣ |
| ابن الأثير | : «الكامل» طبع القاهرة ١٣٠٣ |
| ابن خلدون | : «العبر» طبع بولاق ١٢٨٤ |
| ابن خلدون | : «المقدمة» طبع القاهرة ، وطبعة باريس ١٨٥٨ |
| ابن القفطي | : «تاريخ الحكماء» طبع أوربا ١٩٠٣ |
| المقرئ | : «الخطط» طبع القاهرة ١٢٧٠ |
| ابن دريد | : كتاب الاشتقاق طبع أوربا ١٨٥٤ |
| البيروني | : «تاريخ الشعوب الشرقية» طبع أوربا ١٨٧٨ |
| البلاذري | : «فتوح البلدان» طبع أوربا ١٨٦٦ |
| البلاذري | : «أنساب الأشراف» ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ |
| ابن الطقطقي | : «الفخرى» القاهرة ١٣٤٥ |
| أبو الفداء | : القاهرة ١٩٢٥ |
| المسعودي | : طبع باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧ |
| ابن النديم | : «الفهرست» طبع لايبك ١٨٧١ - ١٨٧٢ |
| ابن هشام | : «السيرة» طبع أوربا ١٨٥٨ - ١٨٦٠ |
| ابن سعد | : «طبقات الصحابة» طبع أوربا ١٩٠٤ |
| ابن فضلان | : «رحلة» نشرها الأستاذ زكي الوليدي ١٩٣٩ |

- محمد كرد علي : « الإسلام والحضارة العربية » القاهرة ١٩٣٦
ابن مسكويه : « تجارب الأمم »
الردزاوري : « ذيل تجارب الأمم »
انجيلوجويدي : نشر كتاب « القاسم بن إبراهيم » المسمى : الرد علي
اللعين الزنديق عبد الله بن المقفع عليه لعنة الله
برغشتراسر : الإسلام والمناوية — المجلة الإسلامية — تصدر
باللغة الألمانية ١٩٢٩
أبو الفرج الأصفهاني : « كتاب الأغاني » طبع بولاق ١٢٨٥ هـ
ياقوت : إرشاد الأريب « إلى معرفة الأديب » طبع ليدن
١٩٠٧ إلى ١٩٣٦
المسبرد : « السكامل » طبع أوروبا ١٨٦٤ إلى ١٨٩٢
ابن عبد ربه : « العقد الفريد » طبع القاهرة ١٣٢١
محمود شكري الآلوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، بغداد ١٣١٤
محمد كرد علي : « رسائل البلغاء » القاهرة ١٩١٣
أبو العلاء المعري : « رسالة الغفران » القاهرة ١٩٠٣
المتنبى : « ديوان » طبع أوروبا ١٨٦٠
أبو تمام : « الحماسة » طبع بولاق ١٢٩٦ هـ و طبع القاهرة ١٣٤٦
فردريش ريكتر : (ترجمة الحماسة إلى اللغة الألمانية) ١٨٤٦
باول شوارتز : (ديوان عمر بن أبي ربيعة) ١٩٠٢ — ١٩٠٩
هرشفيلد : « ديوان حسان بن ثابت » ١٩١٠
جورج يعقوبي : « دراسات في شعر الشنفرى » باللغة الألمانية ١٩١٤ ، ١٩١٥
ف. ا. أرنولد : « المعلقات السبعة » ١٨٥٠
نولدكه : « المعلقات الخمسة مترجمة ومشروحة » ١٨٩٩ — ١٩٠١

شارل جيمس لايل : شرح الشعر العربي القديم وشرح المعلقة السبعة
كلكتا ١٨٩٤

فردريش ريكتر : « امرؤ القيس الشاعر والمملك » ١٩٢٤

سالمون غاندر : « معلقة امرؤ القيس » اطوسه ١٩١٣

أبو العتاهية : « ديوان » بيروت ١٨٨٦

أبو نواس : « ديوان » القاهرة ١٢٧٧

ابن منظور : « أخبار أبي نواس » القاهرة ١٩٢٧

عبدالرحمن السكواكي : أم القرى المطبعة المصرية ١٩٣١

جمال الدين الأفغاني : خاطرات المطبعة العلمية بيروت ١٩٣١

عبدالرحمن السكواكي : طبائع الاستبداد

ابن تيمية : رسائل ابن تيمية الكبرى

ابن تيمية : السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية

جورجي زيدان : مشاهير الشرق

جمال الدين الأفغاني { العروة الوثقى المكتبة الأهلية بيروت ١٩٣٣
والشيخ محمد عبده

الشيخ محمد عبده : تفسير القرآن الكريم جزء عم ١٣٤١ القاهرة

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ثلاث مجلدات .

عجاج نويمض : حاضر العالم الإسلامي مع تعليقات

الأمير شكيب أرسلان .

أسعد داغر : الثورة العربية الكبرى .

رشيد رضا : مجلة المنار .

أمين الريحاني : ملوك العرب .

محي الدين الخطيب : المؤتمر العربي الأول .

ميشاق الدول العربية .

المصادر الغربية

Enzyklopaedie des Islam, Leiden 1913 ff.

C. Brockelmann. Geschichte der arabischen Literatur I 1898 Supplement dazu 1937.

W. Ahlwardt, Über Poesie und Poetik der Araber. Gotha 1856.

Chalef El-ahmar und Josef von Hammer, Greifswald 1820.

J. Wellhausen, Das arabische Reich und sein Sturz, Berlin 1902.

A. von Cremer, Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, Wien 1875-1877.

Culturgeschichtliche Streifzüge auf dem Gebiete des Islams, Leipzig 1873.

Geschichte der herrschenden Ideen des Islams, Leipzig 1868.

A. Mez, Die Renaissance des Islams, Heidelberg 1922.

A. Müller, Der Islam im Morgen-und Abendland, Berlin 1885-1887.

I. Goldziher, Muhammedanische Studien, Halle a. S. 1889-1890.

Abhandlungen zur arabischen Philologie I und II, Leiden 1896 und 1899.

O. Rescher, Abriss der arabischen Literaturgeschichte I, Stuttgart 1925.

G. Van Vloten, Recherches sur la Domination arabe, le Chiitisme et les Croyances messianiques sous le Khalifat des Omayyades. Amsterdam 1894. (Arabische Übersetzung, Kairo 1934.)

G. Vajda, Les zindiqs en pays d'Islam au début de la période abbaside. Rivista degli Studi Orientali XVII, 174-229.

Stuhlmann. Der Kampf um Arabien Berlin 1916.

E. Topf : die Staatenbildungen in der arabischen teilen der turkei Hamburg 1929.

E. Jung : la Révolte arab. Paris 1925.

E. Nolde Reise nach innerarabien 1895.

G. Bell : the letters of gertrude Bell 1924.

M. Hartmann : Reisebriefe aus syrien Berlin 1913.

H. Rohde : der Kampf um Orients und Islam Stuttgart 1924.

النبذ

الإهداء ٣

المقدمة ٥

الفصل الأول ١١

العرب والفرس قبل الإسلام — العرب والفرس في صدر الإسلام —
المواقع الفاصلة بين العرب والفرس — موقعة القادسية — موقعة جاولاء
وموقعة نهاوند — اختلاط العناصر بعد هذا الفتح — أثر هذا الاختلاط
في التقاليد والمادات .

الفصل الثاني ٢١

المولى — تعريف المولى — مكانة المولى في عيون العرب .

الفصل الثالث ٣٠

مقاومة الموالى في عصر صدر الإسلام — اغتيال الخلفاء —
مقاومة الموالى في أيام بني أمية .

الفصل الرابع ٣٧

حركة الموالى في قيام الدولة العباسية — أبو مسلم — البرامكة —
البرامكة ورواية التاريخ والأدب ، والانتحال ووضع الكتب ، والترجمة
والنشر — رواة التاريخ ووضعوا الأخبار — أبو عبيدة « علان »
رواة الأدب ووضعوا الشعر — حماد الراوية — خلف الأحمر — المترجمون
أبان بن عبد الحميد اللاحق — الفضل بن سهل — واضعو الكتب عند
العرب — سهل بن هارون — سعيد البختكان ومحمد بن الليث بن الخطيب
نكبة البرامكة .

الفصل الخامس ٥٣

الموالى والإسلام — أتباع أبي مسلم وفرقة الحرمية — المقنع الخراساني
والرواندية — الباطنية والقرامطة — ابن المقفع ومعارضته القرآن —
الحلاج والحلول — حيدر بن كاووس الأقشبن ومقاومة الإسلام .

الفصل السادس ٧٣

الموالى والشعر العربى — تمهيد فى الشعر الجاهلى — الشعر فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية — اتجاه الشعر فى صدر الدولة العباسية .
المانوية والمزدكية فى شعر بشار بن برد وأبى نواس وأبى العتاهية وما تركه هؤلاء الشعراء الثلاث من أثر فى اتجاه الشعر العربى .

الفصل السابع ١٠٥

تطور حركة الموالى واتساع سلطانهم وانهيار البلاد — أسفار صرداويج البويهيون — أمير الأمراء معز الدولة أحمد بن بويه — بختيار (عز الدولة) وما آلت إليه الحالة فى أيامه -- عضد الدولة وأطماع البويهيين فى الخلافة بهاء الدولة وخلع الطلائع لله — انهيار بغداد .

الفصل الثامن ١٢١

المحاولة العربية — سيف الدولة — المتنبى — المزيديون — ابن تيمية وتلامذته ، ابن عبد الوهاب ، جمال الدين الأفغانى ، محمد عبده ، عبد الرحمن الكواكبي .

الفصل التاسع ١٧٤

اليقظة العربية الحديثة — عوامل اليقظة — محمد على — البعثات التبشيرية — الأدباء والكتاب — المؤتمر العربى الأول — القبض على عزيز على المصرى ونتائجه — العرب والآتراك عند اندلاع الحرب العالمية — العرب والحلفاء — إعلان الثورة ومكانة العرب — عهد الحلفاء ، اتفاق سايكس-بيكو ، وعد بلفور — اصطدام العرب بالحلفاء — إعلان الاستقلال ومبايعة الملك فيصل وما ترتب على ذلك — الحرب بين فرنسا والعرب وخروج فيصل من الشام — الانتداب على العراق ، مبايعة الملك فيصل وتوجيه ملكا على العراق — بعض الحركات الاستقلالية والثورات — سوريا ولبنان — مصر شبه الجزيرة العربية — جامعة الدول العربية

ثبت المصادر العربية وفيها ما نشره المستشرقون وعلقوا عليه
المصادر الغربية